الكتاب الأول

مقدمة

الفصل الأول

روسو جواب الآفاق

١٧١٢ — ٥٦

١ — الاعترافات

كيف حدث أن رجلا ولد فقيراً ، وفقد أمه عند مولده ، ثم هجره أبوه بعد قليل وابتلى بمرض أليم مذل ، وترك يضرب فى الآفاق إثنى عشر عاماً بين مدن غريبة ومذاهب دينية متناحرة ، مرفوضاً من المجتمع والحضارة ، رافضاً فولتير ، وديدرو ، والمسوعة ، وعمر العقل ، رجلا طورد من مكان إلى آخر باعتباره ثائراً خطراً ، واتهم بالإجرام والجنون ، وشهد فى شهور حياته الأخيرة تأليه خصمه الألد — نقول كيف حدث أن رجلا كهذا ، بعد موته ؛ انتصر على فولتير ، وأحيا الدين ، وقلب التعليم رأساً على عقب ، ورفع أخلاقيات فرنسا ، وألهم الحركة الرومانية ، والثورة الفرنسية ، وأثر فى فلسفة كانظ وشوپنهاور ، وتمثيليات شيلر ، وروايات جوته ، وشعر وردزورث وبيرون وشلى ، واشتراكية ماركس ، وأخلاق تولستوى ، وأتيح له — على الجملة — من التأثير على الأجيال التالية ما فاق تأثير أى كاتب أو مفكر آخر فى ذلك القرن الثامن عشر ، القرن الذى فاق فيه تأثير الكتاب تأثيرهم فى أى عهد سبقه ؟ هنا تواجهنا هذه

المشكلة أن كان لها أن تواجهنا فى أى موضع : ما الدور الذى لعبته العبقرية فى التاريخ ، مادور الإنسان إزاء المجتمع والدولة ؟

كانت أوربا آنئذ مهيأة لأنجيل يبوىء الوجدان مكاناً فوق الفكر فلقد سئمت قيود التقاليد والأعراف ، والآداب ، والقوانين . وسمعت ما يكفى عن العقل ، والجدل العقلى ، والفلسفة ، وبدا أن كل هذه الفوضى ، فوضى العقول التى أطلق حبلها على غاربها ، قد جردت الدنيا من المعنى ، وعطلت النفوس من الخيال والرجاء ، وكان الرجال والنساء بينهم وبين أنفسهن تواقين للعودة إلى حظيرة الإيمان . لقد ملت باريس ، ملت الضجيج والعجلة ، وسجن حياة المدينة وتزاحمها المجنون ، وهفت الآن إلى حلم حياة الريف الأكثر هوناً ، الحياة التى قد يجلب نظامها الرتيب البسيط للبدن صحة وللعقل سلاما ، والتى يرى فيها الإنسان من جديد نساء تزينهن الحشمة والحفر ، والتى تلتقى فيها القرية كلها فى كنيسة الأبرشية فى هادئة أسبوعية . ثم مابال هذا « التقدم » الذى يزهون به ، و « تحرير العقل » هذا الذى يفاخرون به — هل أحلا شيئا محل مادمراه ؟ هل أعطيا الإنسان صورة للعالم ومصير الإنسان أكثر وضوحاً للأفهام أو إلهاما للنفوس ؟ هل حسناحظوظ الفقراء ، أو أتيا بالعزاء والسلوى للمحزونين على فقد الأعزاء أو للمتألمين المكروبين ؟ سأل روسو هذه الأسئلة ، وأضنى الشكل والإحساس على هذه الشكوك ، فأصغت إليه أوربا بأسرها بعد أن أخمد صوته . وبينما كان فولتير يعيد على المسرح فى الأكاديمية (١٧٧٨) ، وبينما كان روسو الموبخ المزدرى يختبىء فى ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو .

ولقد ألف أشهر ترجمة ذاتية فى أخريات أيامه ، وهى كتابه «الاعترافات» . ذلك أنه — وهو الرجل الحساس لكل نقد الظنون الذى خال جريم ، وديدرو ، وغيرهما يأتمرون به ليشوهوا سمعته فى صالونات باريس وفى « مذكرات » مدام دينييه — هذا الرجل بدأ عام ١٧٦٢ ، بإلحاح من أحد الناشرين ، كتابة قصته هو ليروى سيرته وخلقه . وكل التراجم الذاتية بالطبع غرور فى غرور ، غير أن روسو — الذى أدانته الكنيسة ، وحرمته من حماية

القانون ثلاث دول ، وهجره أخلص أصدقائه ـ كان له الحق فى الدفاع عن نفسه، بل فى الدفاع المستفيض: وحين قرأ فقرات من هذا الدفاع على بعض المحافل فى باريس حصل خصومه على أمر من الحكومة يحظر أى قراءة علنية أخرى لمخطوطته . فلما فت فى عضده ، تركها عند موته مشفوعة برجاء للأجيال التالية قال فيه :

« إليكم هذه اللوحة الإنسانية الوحيدة ـ المنقولة بالضبط عن الطبيعة بكل صـــدق ـ الموجودة الآن أو التى ستوجد إطلاقاً فى أغلب الظن . وأيما كنتم ، يامن نصبكم قدرى وثقتى حكماً على هذا السجل ، فإنى استحلفكم بحق ماأصابنى من خطوب ومحن وبحق مانشعرون به من أخوة البشر، وباسم الإنسانية جمعاء ، ألا تدمروا عملا نافعاً فريداً فى بابه ، قد يصلح بحثاً مقارناً من الدرجة الأولى لدراسة الإنسان . وألا تنتزعوا من شرف ذكراى هذا الأثر الصادق الوحيد لخلقى ، الأثر الذى لم ينـــل من خصومى مسخاً وتشويهاً [1] .

والكتاب ، بمحاسنه ومآخذه ، نتاج لما فطر عليه مؤلفه من شدة الحساسية ، وقوة الذاتية ، ورهافة العاطفة . يقول روسو «إن قلبى الحساس كان أس بلائى كله .[2] ولكن هذا القلب أضفى ألفة حارة على أسلوبه ، وحنانا على ذكرياته ، وفى كثير من الأحيان سماحة على أحكامه ، وكلها تذيب نفورنا ونحن نمضى فى قراءة الكتاب . ففيه يغدو كل تجريد واقعاً شخصياً مجسداً ، وكل سطر شعوراً نابضاً بالحياة فهذا الكتاب أشبه بالنبع الذى تدفق منه نهر الاعترافات المستبطنة ، النبع الذى روى أدب القرن التاسع عشر ، لا لأنه لم يكن له ضريب سابق من كتب الاعترافات ، ولكن حتى القديس أوغسطين لم يستطع أن يضارع كل هذه التعرية للذات ، أو يدعى دعواها فى الأمانة والصدق . والكتاب يستهل بدقة من البلاغة التى تتحدى المقلدين :

« إننى مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد، أريد أن أظهر إخوانى فى الإنسانية على إنسان فى كل صدق الطبيعة ، وهذا

الإنسان هو أنا نفسى . أنا مجرداً عن كل شىء . أننى أعرف قلبى ، وأنا عليم بالناس . ولم أخلق كأى حى من الأحياء . وإذا لم أكن خيراً منهم ، فإننى على الأقل مختلف عنهم . أما أن الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القالب الذى صببت فيه ، فذلك شىء لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأنى.

« وأياً كان موعد الساعة التى سينفخ فيها فى صور يوم الحشر ، فسوف آتى وكتابى هذا فى يمينى لأمثل أمام الديان الأعظم وسوف أقول بصوت عال: كذلك سلكت ، وكذلك فكرت ، وكذلك كنت ، لقد تحدثت إلى الأبرار والأشرار بنفس الصراحة ، وما أخفيت شيئاً فيه سوء ، ولا أضفت شيئاً فيه خير . وقد أظهرت نفسى كما أنا : حقيراً خسيساً حين كنت كذلك ، وخيراً سمحاً نبيلا حين كنت كذلك ، لقد أمطت اللثام عن أعمق أعماق نفسى [٣] .

وتتردد دعواه فى توخى الصدق الكامل فى الكتاب مراراً وتكراراً . ولكن روسو يسلم بأن تذكره لأشياء انقضى عليها خمسون عاماً كثيراً مايكون تذكراً مبتوراً لا يمكن الركون إليه ، وللجزء الأول فى جملته جو من الصراحة يشيع الطمأنينة فى القارىء. أما الجزء الثانى فتشوهه الشكاوى المملة من الاضطهاد والتآمر . وأياً كان الكتاب ، فهو من أعظم مانعرف من الدراسات السيكولوجية كشفاً عن النفس ، وهو قصة روح حساسة شاعرة خاضت صراعاً أليماً مع قدر واقعى قاس . وعلى أية حال ، فإن كتاب الاعترافات ، لو لم يكن ترجمة ذاتية ، لكان من إحدى الروايات العظيمة فى العالم »[٤] .[*]

(*) مازال الجدل حول صدق « الاعترافات » حاراً . وأهم مايدور عليه هو اتهام روسو لجريم وديدرو بأنهما تآمرا على تزييف رواية علاقاته بمدام ديبينيه ، ومدام دوديتو ، وبشخصيهما . وكانت كفة الرأى الناقد راجحة ضد روسو قبل ١٩٠٠ . ففى ١٨٥٠ قرر سانت بيف ، بفظاظة غير معهودة فيه ، أن روسو لا يتردد فى الكذب أقل تردد أينما تعرضت كرامته وغروره المريض للخطر ، وقد خلصت إلى أنه كذب فيما يتصل بجريم ورفقه على هذا برأى قطب مؤرخى الأدب الفرنسيين ، جوستاف لانسون (١٨٩٤) ، فقال « إننا نفاجىء روسو فى كل صفحة متلبساً بأكاذيب مفضوحة — كذب ، لا لمجرد —

. . . .

= خطأ ، ومع ذلك فالكتاب فى جملته يتقد إخلاصا وصدقا — لا صــدق الوقائع بل صدق المشاعر(٦). وقدسبق هذان الحكمان نشر كتاب السيدة فردريكا مكدونلد «جان جاك — روسو» Jean - Jacques Rousseau - دراسة جديدة فى النقد — (لندن ١٩٠٦) . A New Sfudy in Criticism ، الذى يثبت صواب اعتبار « المذكرات التى ألفتها مدام دبينيه متأثرة بموقف جريم وديدرو المنطوى على الحقد ، إن لم تكن مملاة فعلا من هـــذا الموقف . ودراستها للوثائق تغير ولا ريب كثيراً من المزاعم التى زعمها النقاد من قبل(٧) . قارن كتاب ماسون Mason ديانة روسو La Religion de Rousseau (I, 184) « سنرى أن علينا أن نكون شديدى الحذر فى الاعتماد على هذه الروايات التى أجرى فيها ديدرو قلمه بالكثير من التعديل والتبديل » . وقد وصـــل إلى أحكام مماثلة فى صف روسو ، ماثيو جوزفسن (Jean - Jaques Rousseau 434 - 35, 531) واميل فاجيه (حياة روسو (Vie de Rousseau, 189)، وجول اوميتر (Jean - Jacque Rousseau, 9 - 10) وفون C. E. Vaughn (كتابات روسو السياسية (Political Writings of Rousseau II, 295, 547 - 552 f.)

٣ — الفتى الشريد : ١٧١٢ — ٣١

« ولدت بجنيف فى ١٧١٢ ، ابنا لإسحاق روسو وسوزان برنار ، المواطنين » . والكلمة الاخيرة كانت تعنى الكثير ، لأن ألفا وستمائة فقط من بين سكان جنيف العشرين ألفـــا كانوا يملكون اسم المواطن وحقوقه ، وسيشارك هذا العامل فى تاريخ جان ــ جاك . وكانت أسرته فرنسية الأصل ، ولكنها وطنت فى جنيف منذ ١٥٢٩ . وكان جده قسيسا كلفنيا ، وقد ظـــل الحفيد فى صميمه كلفنيا طوال تطويفه الدينى كله ؛ أما أبوه فكان من إقطاب صناعة الساعات ، رجـــلا خصب الخيال لا يستقر له قرار ، أتاه زواجه (١٧٠٤) بصداق قدره ستة عشر ألف فلورين . وبعد أن أنجب غلاما ترك زوجته (١٧٠٥) ورحل إلى الآستانة حيث مكث ست سنوات ثم عاد لاسباب مجهولة ، « وكنت الثمرة الحزينة لهذه العودة : [٨] وماتت الأم بحمى النفاس بعد أسبوع من مولد جان ــ جاك « جئت إلى العالم أحمل أمارات قليلة جداً على الحياة ، بحيث لم يكن هناك كبير أمل فى الابقاء على ». وكفلته خالة له وأنقذته ، وهو عمل « أغتفره لك دون تحفظ » على حد قوله . وكانت الخالة تجيد الغناء والترتيل ، ولعلها بثت فيه ذلك الشغف بالموسيقى الذى لازمه طيلة حياته . وكان طفلا عبقريا ، تعلم القراءة فى زمن وجيز ، ولمـــا كان أبوه إسحاق مولعا بالقصص الرومانسية ، فقد راح الوالد والولد يقرءان معا الروايات المتخلفة فى مكتبة أمه الصغيرة . ونشىء جان ــ جاك على مزيج من القصص الغرامية الفرنسية ، وتراجم بلوتارخ ، والفضائل الكلفينية ، وجعله هذا المزيج قلقا مهزوزا . وقد وصف نفسه وصفا دقيقا بأنه « أبى هش فى وقت معاً ، فى خلق أنوثه وهو مع ذلك خلق عات لا يقهر ، دأب على وضعى فى موضع التناقض مع نفسى لأنه متذبذب بين الضعف والشجاعة ، وبين الترف والعفة[٩] .

وفى ١٧٢٢ تشاجر أبوه مع رجل يدعى الكابتن جوتييه ، فأسال الدم

من أنفه ، فاستدعاه القاضى المحلى ، ولكنه هرب من المدينة أتقاء السجن ، واتخذ مقره مدينة نيون على ثلاثة عشر ميلامن جنيف . وبعد سنوات تزوج ثانية . وكفل فرانسوا وجان — جاك خالهما جابريل برنار . وألحق فرانسوا بصانع ساعات ، فهرب ، وأختفى من التاريخ . وأما جان — جاك وابن خاله أبراهام برنار فقد أرسلا إلى مدرسة داخلية يديرها القس لا مبرسييه فى قرية بوسيه القريبة . « هنا كان علينا أن نتعلم اللاتينية ، وكل اللغو التافه الذى أطلق عليه اسم التعليم . [١٠] وكان التعليم المسيحى الكلفنى جزءا من صميم المنهج »

وأحب معلميه ، لا سيما أخت القسيس ، الآنسه لا مبرسييه ، وكانت فى الثلاثين ، وجان — جاك فى الحادية عشرة ، فوقع فى غرامها على طريقته العجيبة . كان إذا ساطته عقابا على سوء الأدب ، أبهجه أن يتعذب على يديها ، « فإن شيئا من الشهوانية أختلط بالألم والخزى ، مما خلف فى الرغبة فى تكرار العقوبة أكثر من الخوف منه » . [١١] فلما عاد إلى الذنب وضح التذاذه بالعقاب وضوحا صممت معه على ألا تعود إلى ضربه بالسوط : وقد ظل عنصر مازوكى يلازم تكوينه العشق إلى النهاية .

« وهكذا قضيت سن المراهقة ، ببنية متقدة ، دون أن أعرف أو حتى أشتهى أى أشباع آخر لرغباتى المشبوبة غير ما أوحت به إلى الآنسة لا مبرسييه فى براءة ، وحين بلغت مبلغ الرجال لم يختف هـذا الميل الصبيانى بل إتحد مع الميل الأخر . ولقد ظلت هذه الحماقة وما صاحبها من شدة حياء فطرى تحول دائماً بينى وبين الاجتراء مع النساء ، وهكذا كنت إقضى أيامى أتحرق فى صمت شوقاً لمن أهيم بهن دون أن أجروء على البوح برغباتى . .

« وهانذا قـد خطوت أول خطوة وأشقها فى تيه اعترافاتى الحالك الإليم . ذلك أننا لا نستشعر فى البوح بذنب ينطوى على الإجرام فعلا ذلك النفور الشديد الذى نستشعره فى البوح بذنب لا يثير غير السخرية» [١٢] .

ويجوز أن روسو ، فى حياته اللاحقة ، وجد عنصر لذة فى شعوره بالمقاومة والصد من العالم ، ومن اعدائه ، ومن أصدقائه .

وبعد اللذة التى وجدها فى عقوبات الآنسة لا مبرسييه وجد متعة فى المنظر الطبيعى الرائع الذى أحاط به ، «كان فى الريف من الفتنة . . . ما حبب إلى الحياة الريفية حباً لم يستطع الزمن أن يطفئه » . (١٣) ولعل هذين العامين اللذين أنفقهما فى بوسيه كانا أسعد سنى عمره رغم ما تكشف له من ظلم فى هذه الدنيا . فقد عوقب مرة على ذنب لم يجنه ، فاستجاب بسخط لم يفارقه قط ، وبعدها « تعلم أن يرائى ، ويتمرد ، ويكذب ، وبدأت كل الرذائل المألوفة فى حياتنا تفسد براءتنا السعيدة » . (١٤)

ولم يجاوز قط هذه المرحلة من التعليم المدرسى أو الكلاسيكى وربما كان افتقاره إلى التوازن ، وصواب الحكم ، وضبط النفس ، واخضاعه العقل للوجدان — ربما كان هذا كله راجعاً لأنهاء تعليمه المدرسى فى فترة مبكرة . ففى ١٧٢٤ ؛ حين بلغ الثانية عشرة ، أعيد هو وابن خالته إلى بيت أسرة برنار . وزار أباه فى نيون ، وهناك هام بفتاة تدعى فولسون ، فصدته عنها ، ثم بأخرى تدعى جوتون « أبت أن تسمح لى بشىء من التجاوز معها ، فى حين أباحت لنفسها أشد الحريات معى . (١٥) وبعد عام من التردد والتذبذب ألحق صبيا لحفار فى جنيف . وكان يحب الرسم ، وقد تعلم الحفر على ظروف الساعات ، ولكن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيرة . « فدفعنى إلى رذائل كنت أحتقرها بفطرتى ، كالكذب ، والكسل ، والسرقة » . وانقلب الصبى الذى كان من قبل سعيدا إلى غلام منطو مكتئب كاره لعشرة الناس .

ووجد السلوى فى الأدمان على قراءة الكتب التى استعارها من مكتبة قريبة ، وفى الرحلات الريفية يقوم بها فى الآحاد . وحدث مرتين أنه تباطأ فى الحقول حتى وجد أبواب المدينة مغلقة إذ حاول العودة ، فانفق الليل فى العراء ، ومضى إلى عمله نصف مشدوه ، وكان جزاؤه علقه ساخنة .

وفى رحلة ثالثة من هذه الرحلات حملته ذكرى هذا الضرب على أن يقرر إلا يعود إطلاقا فمضى قدما إلى كونفنيون فى سافوى الكاثوليكية ، على ستة أميال من بلدته ، وهو لم يبلغ بعد السادسة عشره (١٥ مارس ١٧٢٨) لا نقود معه ولا ثياب سوى ما يحمله على ظهره .

هناك طرق باب قسيس القرية الكاثوليكى الأب بنوا ديونفير ، ولعله سمع أن هـــذا الكاهن الشيخ تواق لهداية الجنيفيين الشريدين ، فهو يقدم لهم الطعام الطيب عملا بالنظرية القائلة أن المعدة الممتلئة تعين على التفكير المستقيم . وقد قدم لجان — جاك غذاء طيباً ، وقال له « إذهب إلى آنسى ، حيث تجد سيدة صالحة خيرة يتيح لهـــا كرم الملك أن تحول النفوس عن تلك الخطايا التى إقلعت عنها لحسن الحظ »[١٦] . ويضيف روسو أن هذه السيدة هى « مدام دفاران ، التى اهتدت إلى الكثلكة مؤخرا ، والتى رتب القساوسة أن يبعثوا إليها بأولئك التعساء المستعدين لبيع عقيدتهم ، وكانت إلى حد ما مضطرة إلى أن تشارك هؤلاء معاشا قدره ألفا فرنك أنعم بها عليها ملك سردانيا » . ورأى الفتى الشريد أنشطراً من ذلك المعاش قد يستأهل تغيير العقيدة . وبعد ثلاثة أيام ، فى آنسى ، مثل أمام مدام فرانسوا — لويز دلاتور ، بارونة فاران .

كانت فى التاسعة والعشرين ، امرأة حلوة ، كيسة ، دمثة ، سمحة جذابة الملبس ، « ما رأيت وجها أجل ولا جيدا أبدع ، ولا ذراعين مليحتين أروع تكوينا »[١٧] . وكانت فى مجموعها أبلغ حجة تناصر الكاثوليكية رآهـــا روسو على الاطلاق . ولدت يفيفى لأسرة طيبة ، وتزوجت وهى صغير جداً من المسيو (البارون فيما بعد) دفاران اللوزانى وبعد سنوات من التنافر الأليم تركته ، وعبرت البحيرة إلى سافوى ، ونالت حماية الملك فكتور أمادو ، وكان يومها فى إفيان . وبعد أن نزلت آنسى ، قبلت اعتناق الكاثوليكية ، معتقدة أنها لو ادت شعائرها الدينية على الوجه الصحيح لغفر الله لها غرامياتها التى تقع فيها بين الحين والحين ،

ثم إنها لم تستطع أن تصدق أن يسوع الرقيق القلب سيقذف بالرجال — كما بالك بامراة جميلة — فى النار الابدية(١٨) .

وكان يطيب لجان — جاك أن يمكث معها لولا إنها كانت مشغولة ؛ فنفحته ببعض المال ، وأمرته بأن يمضى إلى تورين ويتلقى التعليم فى « نزل الروح المقدس » وقد استقبل هناك فى ١٢ أبريل ١٧٢٨ ، وفى ٢١ أبريل عمد فى المذهب الكاثوليكى الرومانى . وحين استعاد ذكرى هذه الواقعة بعد أربعة وثلاثين عاماً — وقبل عودته إلى البروتستينية بثمانى سنوات — كتب يصف فى رعب تجربته فى النزل ، بما فى ذلك محولة للاعتداء على عفته من زميل مغربى حديث الاهتداء ؛ وقد خيل إليه أن موقفه من اعتناق الكاثوليكية كان موقف النفور ، والخزى ، والتسويف الطويل . ولكن الظاهر أنه تكيف مع الظروف التى وجدها فى النزل لأنه مكث هناك دون إكراه أكثر من شهرين بعد أن قبل فى كنيسة روما(١٩) .

ثم ترك النزل فى يوليو « مسلحا بستة وعشرين فرنكا . وبعد أن أنفق أياما فى مشاهدة معالم المدينة وجد عملا فى متجر جذبه إليه جمال السيدة الواقفة خلف منضدته . ووقع فى غرامها للتو والساعة ، وما لبث أن جثا أمامها وبذل لها عهدا بالوفاء مدى الحياة . وابتسمت مدام بازيل ، ولكنه لم تسمح له بأن يتجاوز يدها ، ثم أن زوجها كان وشيك الوصول فى أية لحظة . يقول روسو « إن عدم توفيق مع النساء نشأ دائماً عن أفراطى فى حبهن »(٢٠) ولكن كان فى فطرته أن يجد فى التأمل لذة أعظم مما يجد فى الإشباع وقد فرج عن ضيقه بتلك « التكملة الخطرة التى تخدع الطبيعة وتنقذ الفتيان ، الذين على شاكلتى مزاجا ، من اضطرابات كثيرة ، ولكن على حساب صحتهم ، وقوتهم ، واحيانا حياتهم(٢١) .

ولعل هذه العادة ، التى تفاقمت حماها نتيجة النواهى المرهبة ، لعبت دورا خفيا فى زيادة نزقه ، وأهامه الرومانسية ، وشعوره بالقلق فى المجتمع ، وحبه للوحدة . وهنا نجد « الاعترافات » تتوخى صراحة لم يسبق لها نظير .

« كانت أفكارى فى شغل شاغل بالفتيات والنساء ولكن بطريقتى الخاصة . وقد أبقت هذه الأفكار حواسى فى نشاط دائم مؤذ ... وبلغ بى التهيج مبلغا جعلنى ألهب رغباتى بأشد المناورات إسرافا بعد أن عجزت عن اشباعها . فكنت التمس الأزقة المظلمة والأركان المنزويه ، حيث استطيع أن أتعرى عن بعد أمام اشخاص من الجنس اللطيف فى الوضع الذى إشتهيت أن أكون عليه بقربهن . ولم يكن ما رأيته منى هو عورتى — فذلك ما لم يخطر لى ببال ، إنما كان العضو المثير للضحك (الأرداف) : ولا يمكننى وصف اللذة الحمقاء التى استشعرتها فى تعريتها أمام أعينهن . ولم تكن بين هذا وبين المعاملة المشتهاه (وهى الجلد) غير خطوة واحدة ؛ ولست أشك أن امرأة حازمة كانت فى مرورها ما تحتى هذه المتعة لو إننى جرؤت على التمادى فى فعلتى .

« وذات يوم ذهبت لاقف فى مؤخرة حوش به بئر تستقى منها فتيات البيت . . . وعرضت عليهن مشهداً يثير الضحك أكثر مما يثير الغواية « أما أحكمهن فتظاهرن بأنهن لا يرين شيئاً ؛ وبدأ بعضهن يضحكن « وأحس غيرهن بالأهانة فصحن مستغيثات » .

ولكن واحدة منهن لم تتقدم للأسف لتجلده — وبدلا من ذلك حضر حارس يحمل سيفا ثقيلا وله شارب رهيب ، ومن خلفه أربع عجائز أو خمس مسلحات بالمكانس . أما روسو فنجا بأن قال فى تعليل مسلكه أنه « شاب غريب من أسرة كريمة التاث عقله » ولكن ماله قد يمكنه فى المستقبل من مكافأتهم على غفرانهم فعلته ، « وتاثر الرجل المرعب » وخلى سبيله ، الأمر الذى اسخط العجائز غاية السخط[٢٢] .

وكان خلال ذلك قد وجد وظيفة تابع يرتدى زى الخدم فى بيت مدام دفرسللى ، وهى سيدة تورينية لها نصيب من الثقافة . هناك اقترف جريمة أثقلت ضميره طوال عمره . ذلك أنه سرق شريطا من أشرطة المدام الزاهية الألوان ، فلما أتهم بهذه السرقة ادعى أن خادمة أخرى أعطته

للشريط . ويخته الخادمة — ماريون — البريئة تماماً من السرقة توبيخا أنطوى على نبؤة ، فقالت له « إيه ياروسو ، ظننتك ذا طبيعة خيرة . أنك تجعلنى غاية فى التعاسة ، ولكننى لا ارضى أن أكون فى موقفك[٢٣] » . وطرد كلاهما ، ويضيف روسو فى إعترافاته :

لست إدرى ما أصاب ضحية إفترائى هـــذا ، ولكن كان الاحتمال ضعيفاً جدا فى أن تجد لها وظيفة حسنة بعد ذلك ، لأنها عانت من تهمة مؤذية لسمعتها من جميع الوجوه . . . ولقد ظلت الذكرى الإليمة لهـــذا العمل . . تثقل ضميرى إلى اليوم ، وفى وسعى أن أقول صادقا أن رغبتى فى التخفيف من ألم هذه الذكرى شاركت كثيراً فى تصميمى على كتابة إعترافاتى[٢٤] .

وقد تركت تلك الشهور الستة التى عمل فيها خادما بصمتها على خلقه ، فهو لم يصل قط إلى احترام نفسه رغم كل وعيه بعبقريته : وشجعه قسيس شاب لقيه وهو يخدم مدام دفرسللى على الاعتقاد بان فى أستطاعته التغلب على اخطائه إذا حاول مخلصا القرب من اخلاقيات المسيح . وقال السيد جيم هذا إن أى دين صالح ما دام يشيع السلوك المسيحى ؛ ومن ثم فقد أومأ إلى أن جان — جاك يكون أهنأ بالا إن هـــو عاد إلى مسقط رأسه ومذهبه الأصلى . وقد استقرت هذه الآراء « لرجل من أفضل من عرفت من الرجال » طويلا فى ذاكرة روسو ، وأوحت إليه بصفحات مشهورة فى كتابه « إميل » . وبعد عام التقى فى مدرسة سان — لازار اللاهوتية ، بقس آخر هو إذ الأبيه جاتييه ، رجل له « قلب يفيض رقة وحنانا » فاته الترقى لأنه كان سببا فى حمل عذراء فى أبرشيته . يقول روسو معقبا « لقد كانت هذه الفعلة فضيحة رهيبة فى أسقفية شديدة التزمت ، لا يصح فيها أبدا للقساوسة (الخاضعين لتنظيم حسن) أن يكون لهم أبناء — إلا من نساء متزوجات[٢٥] » . ومن « هذين القسيسين الفاضلين ألفت شخصية قسيس سافوا » .

وفى مطلع صيف عام ١٧٢٩ ، عاود روسو — الذى بلغ الآن السابعة عشرة — الحنين إلى حياة الترحل ، ثم أنه علل نفسه بأنه قد يجد بمعونة مدام دفاران وظيفة أقل إذ لا لا لكبريائه . فانطلق بصحبة غلام جنيفى مرح يدعى باكل سيراً من تورين ، واخترقا ممر جبل سنيس فى الألب إلى شامبرى وآنسى . وقد صور قلمه الرومانسى تلك الإنفعالات التى جاشت بها نفسه وهو يدنو من مسكن مدام دفاران تصويرا رائعا « فقد ارتعشت ساقاى من تحتى وغامت عيناى ، فلم أبصر ولم أسمع ولم أذكر احدا ، واضطررت مرارا إلى الوقوف لألتقط أنفاسى وأملك أحاسيسى المشدوهة (٢٦) » . ولا شك فى أنه كان غير واثق من أنها سترحب بمقدمه . فكيف يستطيع أن يفسر لها كل ما طرأ على حياته من صروف وتقلبات منذ تركها ؟ على أن « نظرتها الأولى بددت جميع مخاوفى . ووثب قلبى لسماع صوتها . وألقيت نفسى عند قدميها ، وفى نشوة من الفرح العارم ضغطت شفتاى على يدها(٢٧) » : ولم يسؤها هيامه بها ، فخصصت له حجرة فى بيتها ، وحين بدأ البعض يتقولون كان جوابها « فليقولوا ما شاءوا ، ولكنى ما دامت العناية قد ردته إلى ، فأنى عازمة على إلا اتخلى عنه » .

* * *

٣ — ماما : ١٧٢٩ — ٤٠

وتعلق بها تعلقاً شديداً ، كأى فتى يتعلق بامراة الثلاثين كان يلثم سراً الفراش الذى تنام عليه ، والكرسى الذى تجلس عليه « بل الأرض ذاتها حين يخطر إلى أنها مشت عليها[٢٨] » .

(هنا يخيل الينا أن المبالغة طغت على التاريخ)

وكان شديد الغيرة من كل من ينافسونه على الاستئثار بوقتها . وتركته يخرخر كالهر السعيد ، وكانت تدعوه تارة بالقط الصغير ، وتارة بالطفل ، وشيئاً فشيئاً أرتضى أن يدعوها « ماما » واستخدمته فى كتابة رسائلها وإمساك حساباتها ، وجمع الأعشاب لهـــا ، ومعاونتها فى تجاربها الكيميائية . وأعطته كتبا ليقرأ — الاسبكتاتور ، ويوفندرف ، وسانت افرمون ، وملحمة فولتير الهنرياده . وكانت هى نفسها تحب أن تتصفح « قاموس بويل التاريخى النقدى » وكانت لا تسمح للاهوتها بأن يضايقها ، ولعل استمتاعها بصحبة الأب جرو ، ناظر مدرسة اللاهوت المحلية ، مرجعه أنه كان يساعدها على إحكام عقد مشدها « وبينما كان مشغولا بهذا كانت تجرى فى أرجاء الغرفة ، هنا أو هناك كما تدعو الدواعى . وكان الأب ، ناظر المدرسة ، يتبعها متذمرا تجره الأربطة من خلفها ، وهـــو لا يفتأ يردد « أرجوك أن تقفى ساكنة ياسيدتى » . وكان هـــذا كله مشهدا مسليا حقاً[٢٩] » .

وربما كان هذا القسيس المرح هـــو الذى أشار بأن جان — جاك قد يستوعب من التعليم قدرا يؤهله لأن يكون قسيس قرية ، وذلك على الرغم من كل أمارات الغباوة البادية عليه . ووافقت مدام دفاران وهى مغتبطة بالعثور له على مهنة يرتزق منها . وعليه فنى خريف ١٧٢٩ دخل

روسو مدرسة سان — لازار اللاهوتية ليحضر للقسوسية . وكان قد ألف الكاثوليكية الآن بل شغف بها[٣٠] ؛ احب فيها طقوسها المهيبة ، ومواكبها ، وموسيقاها ، وبخورها ، واجراسها التى خالها تعلن على الملأكل يوم أن الله فى سمائه ، وأن العالم بخير أو سوف يكون بخير ، أضف إلى ذلك أن مذهبا يستهوى مدام دفاران ويغفر لها خطاياها لا يمكن أن يكون سيئاً . غير أن التعليم المدرسى الذى حصله من قبل كان من الضالة بحيث اقتضى الأمر أن يفرض عليه منهج مركز فى اللاتينية . ولكنه لم يستطع صبرا على تصاريف أسمائها وصفاتها وأفعالها ، وبعد خمسة أشهر من الجهد والعرق رده معلموه إلى مدام دفاران بتقرير يقول أنه « غلام لا بأس بتقواه » ولكنه لا يصلح كاهنا .

وحاولت مساعدته من جديد . ودعاها ما لاحظته من ميله للموسيقى إلى تقديمه إلى نيكولوز لوميتر ، عازف الأرغن فى كتدرائية آنسى وذهب جان — جاك ليعيش معه طوال شتاء ١٧٢٩ — ٣٠ ، وعزاؤه أنه لا يبعد عن ماما سوى عشرين خطوة . وراح يرتل فى فرقة الترتيل ويعزف على الفلوت ، وأحب الترانيم الكاثوليكية ، ووجد الغذاء الطيب ، وكان سعيداً . ولم يعكر عليه صفو العيش مع المسيو لوميتر غير إسراف هذا العازف فى الشراب . وذات يوم تشاجر رئيس فرقة الترتيل الصغير مع رؤسائه ، فجمع كراسات موسيقاه فى صندوق ، ورحل عن آنسى . وامرت مدام دفاران روسو أن يصحبه حتى ليون . هناك سقط لوميتر على الطريق مغشيا عليه بفعل (البطاح) أى هذيان الحمى الذى يصيب مدمنى الخمر . واستغاث جان — جاك بالمارة وقد أصابه الرعب ، وأعطاهم العنوان الذى كان مدرس الموسيقى يبحث عنه ، ثم فر راجعاً إلى آنسى وماما . « أن تعلق بها بكل ما فيه من حساسية وصدق اقتلع من قلبى كل مخطط يمكن تصوره وكل حماقات الطموح . فلم أر سعادة فى غير العيش بقربها ، وما كنت لأخطو خطوة دون أن أشعر أن المسافة بيننا قد بعدت[٣١] » . ولكن علينا أن نذكر أنه لم يتجاوز يومها الثامنة عشرة .

فلما وصل إلى آنسى وجد أن المدام قد رحلت إلى باريس ولا أحد يعرف متى تعود . وأحس أنه وحيد مهجور ، فراح ينفق اليوم تلو اليوم هائماً على وجهه فى الريف ، يتأسى بالنظر إلى ألوان الربيع المشرقة وسماع زقزقة الطيور اللطيفة — هذه الطيور العاشقة بلا ريب . وكان أحب الأشياء إليه أن يستيقظ مبكراً ويرقب الشمس تطلع ظافرة فوق الأفق . ورأى فى إحدى جولاته تلك آنستين راكبتين ، تحثان جواديهما المترددين على خوض غدير أمامهما . وفى نوبة من نوبات البطولة أمسك بعنان أحد الجوادين وعبره الماء والآخر يتبعه . وكان على وشك المضى إلى حال سبيله لولا أن الفتاتين أصرتا على أن يصحبهما إلى كوخ يجفف فيه حذاءه وجواربه ، فوثب على ظهر أحد الجوادين خلف الآنسه ج . تلبية لدعوتها « فلما اضطررت إلى الإمساك بها لأستقر فى مكانى راح قلبى يدق وكانت دقاته من العنف بحيث أحست بها » [٣٢] فى تلك اللحظة بدأ يكبر على هيامه بمدام دفاران . وأنفق الشباب الثلاثة يومهم فى رحلة خلوية معاً ، وتجرأ روسو فقبل يد إحدى الفتاتين ثم تركتاه ، فقفل إلى آنسى منتشياً لايكاد يعبأ بغياب ماما عنها . وقد حاول العثور على الآنستين ثانية ، ولكن دون جدوى .

وما لبث أن عاد يضرب فى الأرض من جديد ، واصطحب هذه المرة خادمة مدام دفاران إلى فريبورج . وإذا اخترق جنيف « ألفيتنى متأثراً بالغ التأثر حتى لم أكد أقوى على المضى فى طريقى . . . فقد رفعت صورة الحرية (الجمهورية) روحى إلى الذرى » [٣٣] . ومن فريبورج مشى إلى لوزان . ولم يعرف التاريخ كاتباً شديد الولع بالمشى مثله . فمن جنيف إلى تورين إلى أنسى إلى لوزان إلى نوشاتل إلى برن إلى شامبيرى إلى ليون عرف الطريق واستمتع شاكراً بالمناظر والروائح والأصوات .

« يطيب لى أن أمشى على سجيتى ، وأن أقف حيث اشتهى ، فحياة المشى ضرورية لى . والسفر على الأقدام ، فى ريف جميل ، وجو بديع ،

وبهدف لطيف أختم به رحلتى — هذا أنسب ما يروقنى من ضروب العيش » [٣٤] .

ذلك أنه لعدم شعوره بالإطمئنان فى حضرة الرجال الذين أصابوا حظاً من التعليم ، وبالخجل والعى فى حضرة النساء الجميلات ، كان يسعد إذا انفرد بالغابات والحقول ، والماء ، والسماء ، فجعل من الطبيعة مستودع سره ونجواه وأفضى إليها بغرامياته وأحلامه فى حديث صامت ، وخيل إليه أن حالات الطبيعة المتقلبة تمتزج أحياناً فى تناغم صوفى مع حالته النفسية . ولم يكن أول من أشعر الناس بجمال الطبيعة ، إلا أنه كان أشد رسلها تحمساً لها وتأثيراً فيهم فنصف شعر الطبيعة منذ روسو هو جزء من تراثه ، لقد شعر هالر من قبل بجلال جبال الآلب ووصفه ، ولكن روسو جعل من سفوح سويسرة على طول الساحل الشمالى لبحيرة جنيف ملكه الخاص ، وأورث الأجيال عبير كرومها المدرجة . فلما أراد اختيار موقع لبيت يسكنه شخصيتى جولى وفولمار أسكنهما هنا ، فى كلارنس بين فيفيه ومونترو ، فى فردوس أرضى امتزجت فيه الجبال والخضرة والماء والشمس والثلوج .

وانتقل إلى نوشاتل حين لم يصب نجاحا فى لوزان « هنا . . . بفضل تدريسى للموسيقى اكتسبت بعض الإلمام بها دون وعى منى . » [٣٥]

وفى بلدة قريبة تدعى بودرى التقى بحبر يونانى يلتمس بعض المال لترميم كنيسة القبر المقدس فى أورشليم ، فرافقه روسو مترجماً له ، ولكنه تركه فى سوليو ومشى خارجاً من سويسرة داخلا فرنسا . وفى أثناء سيره دخل كوخا وسأل صاحبه أيستطيع شراء طعام ، فقدم له الفلاح خبز الشعير واللبن ، وقال إن هذا كل ما يملك ، ولكنه حين رأى أن جان — جاك ليس جابى ضرائب فتح باباً مستوراً نزل منه ثم عاد بخبز قمح ، وبيض ، ونبيذ . وعرض روسو أن يدفع ثمن طعامه ، ولكن الفلاح أبى أن يقبله ، وعلل سلوكه بأنه مضطر إلى إخفاء خير الطعام مخافة أن يفرض عليه المزيد من الضرائب . » إن ما قاله لى .. خلف فى ذهنى أثراً لا يمحى ،

وبذر بذور تلك الكراهية التى لاتطفأ والتى نمت منذ ذلك الحين فى قلبى ، الكراهية لما يقاسيه هؤلاء التعساء من عنت ، والسخط الشديد على ظالميهم . (٣٦)

وفى ليون أنفق أياماً بغير مأوى ، يفترش المقاعد فى الحدائق العامة أوينام على الأرض ، واستخدم حيناً فى نسخ الموسيقى . فلما سمع أن مدام دفاران .

تسكن شامبرى (على أربعة وخمسين ميلا إلى الشرق) ، انطلق لينضم إليها من جديد . ووجدت له وظيفة سكرتير لملاحظ الأقاليم(١٧٣٢ـ٣٤) وكان خلال ذلك يعيش تحت سقفها ، لاينقص من سعادته بعض الشىء غير ماكشف من أن مدير أعمالها كلود آنية هو أيضاً يعشقها . ويتضح ما طرأ على غرامه من فتور من هذه الفقرة الفريدة فى اعترافاته :

« لم أستطع أن أعلم ، دون ألم ، أنها تعيش فى مودة أوثق مع شخص غيرى . . . ومع ذلك فبدلا من أن أشعر بأى كراهية للشخص الذى تفوق على على هذا النحو وجدت الود الذى أكنه لها يمتد فعلا إليه ، فلقد تمنيت لها السعادة فوق كل شىء وإذ كان معنياً بخطتها التى توسلت بها للسعادة ، فقد رضيت له السعادة هو أيضاً واعتنق خلال ذلك أفكار خليلته تماماً وشعر بصداقة مخلصة لى . . وهكذا عشنا فى وحدة أسعدتنا جميعاً ، وحدة لايقوى على فصم عراها غير الموت . ومما يدل على سمو خلق هذه المرأة الودود أن كل الذين أحبوها أحبوا بعضهم بعضاً ، فحتى الغيرة والتنافس أذعنا للعاطفة الأقوى التى ألهمتهم أياها وما رأيت قط واحداً ممن أحاطوا بها يضمر أقل حقد للآخرين . فليتوقف القارىء هنيه عند هذا المديح ، وإذا استطاع أن يتذكر أى أمرأة أخرى تستحقه فليرتبط بها أن أراد لنفسه السعادة (٣٧).

أما الخطوة التالية فى هذه الرواية الغرامية المتعدده الأطراف فكانت هى

أيضاً نقيضاً لكل قواعد الزنا . ذلك أن مدام دفاران حين أدركت أن جارة لها تدعى المدام دمانتون تتطلع إلى أن تكون أول من يعلم جان — جاك فنون الغرام ، عرضت نفسها عليه خليلة دون أن يكون فى هذا الوضع إضرار بخدماتها المماثلة لآنية ، إما لأنها أبت أن تسلم بالتفوق لجارتها وإما لأنها أرادت أن تحمى الفتى من ذراعين أقل حنانا من ذراعيها وأنفق جان — جاك ثمانية أيام يدير الأمر فى رأسه ، فقد كان من أثر طول ألفته بها أن أفكاره عنها كانت بنوية أكثر منها شهوانية . يقول « لقد أحببتها حبا منعنى من أن اشتهيها[٣٨] » وكان آنئذ يعانى من الأمراض التى قدر لها أن تطارده حتى النهاية ، وهى التهاب المثانة وضيق مجرى البول. وأخيرا ، وبكل الحياء المنتظر منه ، ارتضى العمل باقتراحها . يقول :

« واخيرا جاء اليوم الذى كنت أخشاه أكثر مما أتوق إليه . . . . فلقد كان قلبى يحبذ غرامياتى دون أن يشتهى الجائزه . ولكنى حصلت عليها رغم ذلك . ورأيتنى لأول مرة بين ذراعى امرأة ، وامرأة أعبدها . أكنت سعيدا ؟ لا لقد ذقت اللذة ، ولكنى لا أدرى أى حزن طاغ مبهم هذه التعويذه فلقد شعرت كأنى أقترف سفاح المحارم . وبينما كنت أضمها بين ذراعى فى نشوة الفرح اغرقت صدرها مرتين أو ثلاثا بدموعى . أما هى فلم تكن بالحزينة ولا بالفرحة ، بل كانت هادئة وهى تعانقنى وتقبلنى ولم تستشعر أى إنتشاء ، ولا أحست بالندم قط ، لأنها لم تكن شهوانية على الأطلاق ، ولم تكن تبحث عن اللذة بتاتا[٣٩] .

وقد عزا روسو إلى سم الفلسفة مناورات هذه السيدة وهـــو يستحضر ذكرى هذا الحدث البارز فيما بعد . قال :

« أكرر أن كل مشاعرها كانت نتيجة خطئها لا نتيجة شهواتها . فلقد كانت كريمة المولد ، نقية القلب ، نبيلة السلوك ، وكانت رغباتها سوية فاضلة ، وذوقها رقيقا مرهفا . وبدا أنها خلقت لذلك الطهر الرائع — طهر الآداب — الذى أحبته على الدوام ولكنها لم تمارسه قط ، لأنها بدلا من أن تصغى إلى أوامر قلبها اتبعت أوامر عقلها الذى ضللها . . . . ومن

سوء حظها أنها كانت تعتز بالفلسفة ، وكان من أثر المبادىء الخلقية التى استخلصتها من هذه الفلسفة إفساد الفضيلة التى أشار بها قلبها[٤٠] .

ومات آنيه فى ١٧٣٤ . واستقال روسو من وظيفته فى خدمة ملاحظ الإقليم ، وتولى إدارة أعمال المدام وقد وجدها فى حال خطرة من الخلل تشرف على الأفلاس فحصل على بعض المـــال بتدريس الموسيقى ، وفى ١٧٣٧ آلت إليه ثلاثة آلاف فرنك إستحقت له من ميراث أمه . فأنفق بعضها على الكتب ، وأعطى الباقى لمدام دفاران . ثم لزم الفراش ، فرضته ماماً بحنان . ولما لم يكن لبيتها حديقة فقد استأجرت (١٧٣٦) كوخا فى ضاحية يسمى الشارميت هناك « سارت حياتى سيراً هادئا غاية الهدوء » ومع أنه « لم يكن يحب قط أن يصلى فى قاعة » فإن الخلاء خارج الكوخ حفزه لشكر الله على جمال الطبيعة وعلى مدام دفاران ، ولطلب البركة الألهية على رباطهما . وكان يومها شديد التعلق باللاهوت الكاثوليكى مع شائبة حزينة من الجانسنية « فكثيرا ما عذبنى خوف الجحيم[٤١] » .

وكان يقلقه أكتئاب هو ضرب من الوهم كان رائجا فى ذلك العهد . وقد خيل إليه أن هناك ورما فى غشاء قريب من قلبه ، فقصد مونبلييه فى مركبة البريد : وفى الطريق هدأ من أكتئابه بما زعم أنه تحقيق لوصال بمدام دلارناج (١٧٣٨) وكانت أما لفتاه فى الخامسة عشرة . فلما عاد إلى شامبرى وجد أن مدام دفاران تجرب علاجا مماثلا ، وأنها اتخذت عشيقا جديداً لها من صانع باروكات شاب يدعى جان فنتسنريد . واحتج روسو ؛ فقالت له إنه يسلك كالأطفال ، وأكدت له أن فى حبها متسعا لاثنين باسم جان . ولكنه أبى أن « يحط من كرامتها على هذا النحو » ، فاقترح عليها أن يعود إلى وضعه القديم ، فزعمت أنها موافقة ، ولكن أستياءها من تخليه عنها بهذه السرعة أصاب محبتها له بالفتور . وأعتكف فى شارميت وأقبل على دراسة الفلسفة .

ولأول مرة (حوالى ١٧٣٨) وعى بنسائم « التنوير » الهابة من باريس وسيريه . فقرأ بعض أعمال نيوتن ، وليبنتز ، وبوب ، وقلب فى متاهات

قاموس بيل . ثم عاد إلى درس اللاتينية ، وأحرز فى ذلك بجهده وحده تقدما أكثر مما أحرز من قبل على يد معلميه ووفق إلى أن يقرأ شذرات من فرجل ، وهوراس ، وتاسيتوس ، وترجمة لا تينية لمحاورات افلاطون . وطلع عليه لا بروبير ، وبسكال ، وفنيلون ، وبريفوست ، وفولتير ، وكأنهم رؤيا أدارت رأسه « لم يفتنا شيء مما كتبه فولتير » ؛ والواقع أن كتب فولتير هى التى « أوحت إلى بالرغبة فى أن أتأنق فى الكتابه ، وحملتنى على محاولة تقليد تلوينات ذلك الكاتب الذى فتنت به أى فتنة[٤٢] » وعلى غير وعى منه فقد اللاهوت القديم الذى كان من قبل إطار إفكاره ، شكله وصرامته ، فوجد نفسه يفكر دون رعب فى عشرات الهرطقات التى كانت تبدو له فى شبابه فاضحة شائنه . وحل محل إله الكتاب المقدس إيمان حار يوشك أن يكون مشبوبا هو الإيمان بوحدة الوجود . هناك إله ، نعم ، والحياة بدونه لا معنى لها ولا يطيقها الإنسان ، ولكنه ليس ذلك الإله الخارجى ، المنتقم ، الذى تصوره الناس القساة الجبناء ؛ إنما هو روح الطبيعة ، والطبيعة فى صميمها جميلة ، والطبيعة البشرية فى أساسها خيره . وعلى هذا الإيمان ، وعلى بسكال ، سيقيم روسو فلسفته .

وفى ١٧٤٠ وجدت له مدام دفاران وظيفة معلم خاص لولدى المسيو بونو دمابليه ، رئيس بلدية ليون وافترق عنها دون لوم ولا عتاب من أحد الطرفين ، وأعدت له ثياب الرحلة ، وخاطت لها بعض الملابس بيديها اللتين كانتا فتنة له يوما ما .

* * *

٤ — ليون والبندقية وباريس : ١٧٤٠ — ٤٩

كانت أسرة مابليه حافزا فكريا جديداً لروسو . وكان رئيس البلدية أكبر إخوة ثلاثة نابهين ، أحدهم جابرييل بونو دمابليه الذى اقترب من الشيوعية ، والآخر هو الأبيه إتيين بونو دكوندياك ، الذى أوشك أن يكون ماديا . وقد التقى روسو بثلاثتهم . وبالطبع وقع فى غرام مدام دمابليه ، ولكنها كانت من السماحة بحيث لم تعر الأمر أهمية . واضطر جان — جاك أن ينصرف إلى مهمته ، وهى تعليم ولديها . فأعد للسيد دمابليه بيانا بأفكاره التربوية ، وكانت فى بعضها تتفق والمبادىء التحررية التى ستعرض عرضا رومانسيا ممتازا فى كتابه « إميل » بعد اثنتن وعشرين عاماً ، وفى بعضها تناقض رفضه اللاحق لـ « الحضارة » ، لأنها اعترفت بقيمة الفنون والعلوم فى تطوير النوع الإنسانى . وكان يلتقى مراراً برجال كالأستاذ بورد عضو أكاديمية ليون (وكان صديقاً لفولتير) ، فتشرب قدرا أكبر من «التنوير»، وتعلم أن يهزأ بالجهل والخرافة الشائعين بين الجماهير . ولكنه ظل طوال حياته مراهقا . فذات يوم رأى شابة عارية تماماً إذ اختلس النظر إليها وهى تستحم فى الحمامات العامة ، وتوقف قلبه عن النبض ، فلما خلا إلى نفسه فى حجرته وجه إليها خطابا جريئا غفلا من التوقيع قال فيه :

« لا أكاد أجرؤ على الاعتراف لك يا آنسة بالظروف التى أدين لها بسعادة رؤيتى أياك وعذاب حبى لك . فقد فتنتنى فيك ما هـــو أكثر من ذلك الجسد النحيل اللطيف الذى لا ينتقص العرى من جماله ، وذلك القوام الأنيق ، وتلك الخطوط الرشيقه . . . ما هـــو أكثر من نضارة الزئبق المنثور على شخصك بهذا السخاء الكثير . . . أنها حمرة الخجل الناعمة التى رأيتها تكسو جبينك حين أسفرت عن وجودى لعينيك بعد أن جردتك بخبث شديد — بغناء بيتين من الشعر[٤٣] .

وكان الآن قد شب إلى السن التى تغريه بعشق الصبايا ، فكادت كل

فتاة حسنة الطلعة تثير أشواقه وأحلامه ، ولكنه تعلق على الأخص بسوزان سير . « مرة — وأأسفاه ، مرة واحدة فقط فى حياتى ؟ لمس فمى فمها . إيه أيتها الذكرى ؟ هل أفقدك فى القبر ؟ » وبدأ يفكر فى الزواج منها ، ولكنه اعترف لها قائلا « ليس لدى ما أقدمه لك سوى قلبى [٤٤] » ولما لم يكن قلبه عملة قانونية ، فإن سوزان قبلت يد غيره ، وانكفأ روسو إلى إحلامه من جديد .

إنه لم يخلق ليكون عاشقا ناجحا ولا معلما كفئا .

« كان لدى من المعرفه القدر اللازم تقريبا لمدرس خاص . . . وبدا أن رقة طبعى الفطرية تهيئنى لهـذا العمل ، لولا أن تعجل الأمور اختلط بهذا الطبع فإذا سارت الأمور رخاء ورأيت أن الجهود التى لم أضن بها أثمرت كنت ملاكا ، إما إذا اخفقت فقد كنت أنقلب شيطانا . فإذا لم يفهمنى تلميذاى تعجلت الشرح ، وإذا أظهرا أى أمارات على الطبع المشاكس كان ذلك يستفزنى استفزازا يكاد يحملنى على قتلهما . . . . وصممت على تركهما بعد أن اقتنعت بأننى لن انجح إبدا فى تعليمهما التعليم الصحيح : وتبين المسيو دمابليه هـذا بالوضوح الذى تبينته به وأن كنت ميالا إلى الاعتقاد بأنه ما كان ليطردنى قط لولا أننى أعفيته من هذا العناء » .

وهكذا أستقل مركبة البريد قافلا إلى شامبرى بعد أن أستقال وهو حزين ، أو طرد طرداً كريما . والتمس العزاء من جديد بين ذراعى ماماً : فاستقبلته هى فى تلطف وأفسحت له مكاناً على ما ئدتها مـع عشيقها : ولكنه لم يكن سعيدا فى هذا الموقف ، فاغرق نفسه فى الكتب والموسيقى ، وابتكر طريقة للتدوين الموسيقى تستخدم الأرقام بدلا من الرموز . ولمـا عزم على الذهاب إلى باريس وعرض اختراعة على أكاديمية العلوم أثنى الجميع على قراره . وفى يوليو ١٧٤٢ عاد إلى ليون ملتمسا خطابات تقديم إلى الأعيان فى العاصمه . وأعطاه آل مابليه خطابات إلى فونتنيل

والكونت دكايلوس وقدمه بورد إلى الدوق درشليو . ومن ليون أستقل المركبة العامة إلى باريس تتداعب رأسه أحلام المجد .

وكانت فرنسا آنذاك مشتبكة فى حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠—٤٨) ولكن الحرب كانت تدور رحاها على أرض أجنبيه ، وعليه فقد سارت باريس سيرتها الأولى وواصلت حياة المرح البهى والاضطراب الفكرى ، حياة المسارح الناطقة بمسرحيات راسين ، والصالونات المتألقه بالمرطقات والسخريات ، والأساقفة الذين يقرءون فولتير ، والشحاذين الذين ينافسون البغايا ، والباعة الجوالين الذين ينادون على بضائعهم ، والصناع الذين يبذلون العرق فى سبيل لقمة العيش إلى هذه الدوامة أقبل جان — جاك روسو ، وهو فى الثلاثين من عمره ، فى أغسطس ١٧٤٢ ، وفى كيسه من المال خمسة عشر جنيها . واستأجر حجرة فى فندق سان — كنتان بشارع الكوردلييه قرب السوربون — « شارع حقير وفندق تعس ، وحجرة بائسه [٤٦] » وفى ٢٢ أغسطس قدم إلى الأكاديمية « مشروعا عن علامات جديدة للتدوين الموسيقى » . ورفض العلماء مشروعه فى مجاملة لطيفة . وشرح له رامو رأيهم قائلا « أن علاماتك حسنه جدا . . . ولكن عليها إعتراضا ، هو أنها تحتاج إلى إعمال الذهن ، وهو أمر لا يمكن دائما أن يرافق سرعة التنفيذ . أما موضع علاماتنا فيصور للعين دون تزامن مع هذه العملية » واعترف روسو بأن الأعتراض لا يمكن التغلب عليه[٤٧] .

وأتاحت له خطابات التقديم التى إخذها معه خلال ذلك الاتصال بفونتيل الذى كان وهو فى عامه الخامس والثمانين أحرص على طاقته من أن يأخذ روسو مأخذ الجد ، والاتصال بماريفو الذى قرأ مخطوطة مسرحية روسو الهزلية « نارسيس » واقترح أن يدخل عليها تحسينات ، وذلك رغم إنشغاله بنجاحه روائيا وكاتبا مسرحيا وقابل الوافد الجديد ديدرو ، الذى لم يكن بعد قد نشر أى مؤلف يؤبه به ، وكان يومها يصغر جان — جاك بعام واحد .

« كان ولوعا بالموسيقى ، يعرفها نظريا . . . وقد حدثنى بعض

مشروعاته الأدبية . . . وسرعان ما وثق هذا بيننا صلة دامت خمسة عشر عاماً ، وأغلب ظنى أنها كانت ستدوم إلى اليوم لولا أننا لسوء الحظ... أبناء حرفة واحدة » (٤٨) .

وكان يصاحب ديدرو إلى المسرح أويلاعبه الشطرنج ، والتقى روسو فى تلك اللعبة بفيليدرو وغيره من مهرة لاعبيها ، و« لم يكن عندى شك فى أننى فى النهاية سأتفوق عليهم جميعاً». (٤٩) ووجد سبيله إلى بيت مدام دوبان وصالونها ، وكانت ابنة المصرفى صموئيل برنار ، وعقد صداقة مع ابن زوجها كلود دوبان دفرانكوى وخلال ذلك أوشكت نقوده على النضوب .

وبدأ يبحث من حوله عن عمل يستكمل به جهود أصدقائه فى إطعامه . فعرضت عليه بنفوذ مدام بزنفال وظيفة سكرتير للسفارة الفرنسية فى البندقية . وبعد أن قطع رحلة طويلة محفوفة بالخطر بسبب الحرب ، وصل إليها فى ربيع ١٧٤٣ وقدم نفسه إلى السفير الكونت دمونتاجو . ويؤكد لنا روسو أن هذا الكونت كان أمياً تقريباً ، . وكان على السكرتير أن يفك شفرة الوثائق وأن يحررها ، وكان يقدم رسائل الحكومة الفرنسية إلى مجلس شيوخ البندقية بشخصه لأنه لم ينس الإيطالية التى كان قد تعلمها فى تورين وكان فخوراً بمنصبه الجديد ، وشكا من أن مركباً تجارياً زاره لم يطلق المدافع تحية له مع أن هذه « التحية نالها من هم أقل شأناً » . (٥٠) وتشاجر الرئيس والمرؤوس على أيهما يظفر بالرسوم التى تدفع نظير استخراج السكرتير لجوازات السفر إلى فرنسا . وقد صلحت حال روسو بفضل نصيبه من هذه الرسوم ، فتناول الطعام الطيب على غير العادة ، واختلف إلى المسرح والأوبرا ، ووقع فى غرام الموسيقى الإيطالية والفتيات الإيطاليات .

وذات يوم زار مومساً تسمى لابدوانا « لكيلا أبدو شديد البلاهة أمام رفاقى » وطلب إليها أن تغنى فغنت ، فنقدها دوكاتيه وهم بالإنصراف ، ولكنها رفضت أن تأخذ قطعة النقود دون أن تكون قد بذلت فى نيلها

جهداً . فأرضاها ، وعاد إلى مسكنه « مقتنعا كل الاقتناع بأنى سأتجرع عواقب هذه الفعله ، فكان أول شيء فعلته أنى استدعيت جراح الملك لألتمس منه الدواء « ولكن الطبيب » أقنعنى بأن فى خلقتى ما يجعلنى لاأقبل العدوى بسهولة » (٥١) وبعد فترة أقام له أصدقاؤه حفلة يثاب فيها بجائزة هى الغانية الجميلة زوليتا فدعته إلى حجرتها وخلعت ثيابها . « وفجأة ، بدلا من أن اضطرم بنار الشهوة أحسست ببرودة قاتله تسرى فى عروقى ، وباشمئزاز ينفذ إلى أعماقى ، فجلست وانخرطت فى البكاء كالأطفال » . وقد علل عجزه هذا فيما بعد بأن أحد ثديي المرأة كان مشوها . أما زوليتا فقد انقلبت عليه هازئة وقالت له « دع النساء وشأنهن ، وانصرف إلى درس الرياضة » (٥٢).

وأوقف المسيو دمونتاجو صرف راتب روسو لأن راتبه هو كان متأخراً . فعادا إلى الشجار ، ورفت السكرتير (١٧٤٤) وشكا روسو إلى أصحابه فى باريس وأرسل استفسار إلى السفير فأجاب « يجب أن أبلغكم كم كنا مخدوعين فى السيد روسو . ذلك أن حدة طبعه ووقاحته الناجمين عن شدة اعتداده بنفسه ، وعن جنونه ، هما اللذان أفضيا به إلى الحال الذى وجدناه عليه . لذلك طردته كما يطرد خادم سيىء » (٥٣) وقفل جان — جاك إلى باريس (١١ أكتوبر) وطرح على الموظفين المختصين فى الحكومة وجهة نظره فى النزاع فلم ينصفوه . فلجأ إلى مدام دبزنفال ، ولكنها رفضت أن تستقبله . فأرسل إليها خطابا عنيفاً نستطيع أن نحس فيه لفحات الثورة الفرنسية البعيدة :

« كنت مخطئاً يا سيدتى ، فقد ظننتك منصفة فإذا بك « نبيلة » فقط ، وكان يجب على أن أذكر هذا وأن أدرك أنه لا يليق بى — وأنا رجل غريب أنتمى إلى طبقة العامة — أن أشكر أحد السادة . ولو أن قدرى رمانى ثانية فى قبضة سفير بهذا الخلق لكابدت آلامى دون شكوى . فإذا كان مفتقراً إلى الإحساس بالكرامة ، ينقصه سمو النفس ، فذلك لأن النبالة فى غنى عن هذا كله ، وإذا اقترن بكل ما هو حقير دنىء فى بلد من أشد بلاد الله

فسادا ، فذلك لأن أجداده خلقوا له من الشرف ما يكفيه ؛ وإذا عاشر الأوغاد ، أو كان هو نفسه وغدا ، وإذا أكل على خادم أجره ، إذن ياسيدتى فلن أخلص إلا إلى هذا الرأى ، وهو أن من حسن حظ المرء إلا يكون وليد افعاله هو . فهولاء الاجداد — من كانوا ؟ أشخاص لا شهرة لهم ، ولا مال ، نظرائى ، كان لهم موهبة من نوع ما ، وبنوا لأنفسهم سمعة ، ولكن الطبيعة التى تبذر بذرة الخير والشر ، اعطتهم نسلا حقيرا[٥٤] » .

ثم إضاف روسو فى « الإعترافات » :

« لقد خلفت عدالة شكاواى وعدم جدواها فى ذهنى بذور السخط على نظمنا الاجتماعية الحمقاء التى تضحى فيها دائما رفاهية الشعب والعدل الحقيقى فى سبيل مظهر للنظام ما أنزل الله به من سلطان ، لا ثمرة له إلا أنه يضيف موافقة السلطة العامة إلى ظلم الضعفاء وبغى الأقوياء[٥٥] .

ولما عاد مونتاجو إلى باريس أرسل إلى روسو « بعض المال تسوية لحسابى . . . وتسلمت ما أعطانى وسددت كل ديونى ، وعدت يا مولاى كما خلقتنى . « واستقر ثانية فى فندق سان — كنتان وارتزق بنسخ مدونات الموسيقى . ولما سمع النبيل الذى كان يحمل آنئذ لقب دوق أوليان بفقره أعطاه كراسات موسيقى لينسخها مشفوعة بخمسين جنيها ذهبيا ، فاحتجز روسو منها خمسة ورد الباقى لأنه يزيد على حقه .[٥٦]

وكان ما يكسبه أقل كثيراً مما يتيح له أن يعول زوجة ، ولكنه رأى أن فى استطاعته أن يعول خليلة إذا أحكم التدبير وكان من بين من يؤاكلونه فى فندق سان — كنتان صاحبة الفندق ، وبعض الآباء الدينين المفلسين ، وشابة تخدم الفندق غسالة أو خياطة . وكان فى هذه المرأة ، وإسمها تريز لقاسير ، ما فى جان — جاك من إحجام وتردد ، ووعى بالفقر وأن لم تكن فخوره بفقرها مثله . وكان يدافع عنها إذا عاكسها الآباء . وانتهى بها الأمر إلى أن ترى فيه حاميها ، وسرعان ما وجد الواحد منهما سبيله إلى حضن صاحبه (١٧٤٦) وبدأت إصارحها بأننى لن أتخلى عنها ولن أتزوجها[٥٧] ». وإعترفت بأنها ليست عذراء ، ولكنها أكدت له أنها لم تأثم غير مرة واحدة ،

وكان ذلك منذ أمد بعيد . فصفح عنها صفحاً جميلا ،مؤكداً لها أن عذراء العشرين مخلوق نادر الوجود فى باريس على أى حال .

وكانت مخلوقة بسيطة لا سحر فيها ولا دلال ، لا تستطيع الكلام فى الفلسفه أو السياسة كنساء الصالونات ، ولكنها تعرف كيف تطهو ، وتدبر شئون البيت وتحتمل فى صبر نزواته وعاداته الغريبة . وكان يتكلم عنها عادة باعتبارها « مدبرة البيت » أما هى فتقول عنه « رجلى » وندر أن اصطحبها فى زياراته لا صدقائه ، لأنها ظلت على الدوام مراهقة ذهنيا ، كما ظل هو على الدوام مراهقا خلقيا .

« حاولت أول الأمر أن أصلح عقلها ، ولكن جهودى ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن عقلها بقى على ما فطرته الطبيعة ، فهو لا يقبل التثقيف . ولا يخجلنى أن أعترف أنها لم تعرف قط كيف تقرأ جيداً ، وإن كانت تكتب كتابة لا بأس بها . . ولم تستطع قط أن تتلو شهور السنة بالترتيب ، أو تميز بين عدد وآخر رغم ما بذلت من عناء فى محاولة تعليمها . وهى لا تعرف كيف تعد النقود ، ولا تحسب ثمن أى شىء فإذا تكلمت كانت الكلمة التى تخطر لها هى فى احيان كثيرة عكس الكلمة التى تقصدها . وقد صنفت فيما مضى قاموسا بعباراتها لأروح به عن المسيو دلكمسبورج ، وكثيراً ما ذاع أمر اغلاطها بين اخص اصحابى [٨٥] » .

فلما حملت « أرتبك أشد إرتباك » فماذا هو صانع بالأطفال ؟ وأكد له بعض اصحابه أنه من المألوف إرسال الأطفال غير المرغوب فيهم إلى ملجأ للقطاء . فلما ولد الطفل فعل هذا رغم احتجاجات تريز ، ولكن بتعاون أمها (١٧٤٧) وخلال الاعوام الثانية التالية ولد له أربعة أطفال تصرف فيهم على هذا النحو . وقد ألمع بعض الشكاك إلى أن روسو لم يرزق اطفالا ، وأنه اخترع هذه القصة ليخفى عجزه الجنسى ، ولكن كثرة دفاعه عن تنصله هذا من المسئولية تجعل هذه النظرية بعيدة الاحتمال . وقد اعترف سراً بتصرفه فى هذا الأمر لديدرو ، وجريم ، ومدام دينيه[٥٩] ؛ واعترف به ضمنا فى كتابه « إميل » ؛ واستشاط غضبا على فولتير لأنه أذاع خبره ، ثم أقر به صراحة فى كتابه « الاعترافات » واعرب عن ندمه . إنه لم يخلق للحياة العائلية ، لأنه كان حزمة مرهفة من

الأعصاب ، وجواباً شريداً فى الجسد والروح . وكان يعوزه ذلك الأهتمام بالأطفال الذى يجعل الأب صاحبا رزينا ، ولم تكتمل رجولته قط .

فى نحو هذه الفترة اسعده الحظ بأن يجد وظيفة مريحة . فقد أشتغل سكرتيراً لمدام دويان ، ثم لأبن أخيها . وحين أصبح دويان دفرانكوى أمينا عاما للصندوق رقى روسو صرافا براتب ألف فرنك فى السنة . واتخذ الآن الضفيرة الذهبية ، والجوارب البيض ، والباروكة ، والسيف ، وكلها شارات حاكى بها الأدباء ثياب الطبقة الارستقراطية ليجدوا طريقهم إلى بيوت النبلاء(٦٠) . وفى وسعنا أن نتصور ضيقه بشخصيته المنقسمه على ذاتها . وقد أستقبل فى عدة صالونات وصنع أصدقاء جدد ، منهم رينال ، وما رمونيتل ، ودوكلو ، ومدام دينيه ، ثم فريدرش ملشيور جريم ، الذى ارتبط به ارتباطاً حميما جداً ومؤذيا جداً . واختلف إلى حفلات العشاء المثيرة فى بيت البارون دولباخ حيث كان ديدرو يقتل الآلهة بسلاح سماه خصومه فلك خمار . فى وكر الملحدين ذاك ذاب وتلاشى جل كتلكة جان — جاك .

وألف الموسيقى خلال ذلك . وكان قد بدأ فى ١٧٤٣ مزيجا من الأوبرا والباليه سماه « ربات الفنون الرشيقات » يحيي به غراميات أناكربون ، وأوفيد ، وتاسو ، وأخرجت الاوبرا فى ١٧٤٥ محدثة بعض الضجة فى بيت جابى الضرائب لابولفيير ، وقد سخر منها رامو وزعم إنها محاكاة لانتحالات من الملحنين الإيطاليين ، ولكن الدوق رشليو أعجب بها وعهد إلى روسو بتنقيح أوبرا وباليه تسمى « أعياد رامير » أعدها رامو وفولتير على سبيل التجربة . وفى ١١ ديسمبر ١٧٤٥ كتب روسو أول رساله لأمير أدباء فرنسا :

« لقد ظالمت خمسة عشر عاماً أكد وأكدح لأجعل نفسى جديرا باحترامك وبالعطف الذى تحبو به شباب الإدباء الذين تكتشف فيهم الموهبة . ولكى بفضل كتابتى موسيقى أحدى الأوبرات أجدنى قد انقلبت موسيقيا . وأيا كان النجاح الذى تحققه جهودى الضعيفة فإنها ستكون فى نظرى جهودا

رائعه لوكسبت لى شرف معرفتك أياى ، والأعراب عن الأعجاب والاحترام العميق اللذين يشرفنى أن يكنهما لك خادمك المتواضع المطيع جداً[٦١] » .

وأجاب فولتير : « سيدى ، إنك تجمع فى شخصك موهبتين وجدتا على الدوام منفصلتين حتى الأن ، فهذا مبرران طيبان يحملانى على تقديرك ومحبتك » .

وبهذين الخطابين من خطابات الحب بدأت خصومتهما الشهيرة .

٥ — هل الحضارة مرض ؟

فى عام ١٧٤٩ سجن ديدرو فى فانسين عقابا له على فقرات مهينة فى كتابه « رسائل عن المكفوفين » وكتب روسو إلى مدام دبومبادور يلتمس الأفراج عن صديقه أو الإذن له بأن يشاركه سجنه . وخلال ذلك الصيف قام غير مرة برحلة دائرية طولها عشرة أميال بين باريس وفانسين ليزور ديدرو . وفى واحدة منها أخذ نسخة من مجلة المركير دفرانس ليقرأ اثناء سيره . وهكذا وقع على الإعلان عن جائزة تقدمها أكاديمية ديجون لأفضل مقال يجيب عن هذا السؤال « هل أعان إحياء العلوم والآداب والفنون على إفساد الإخلاق أم على تطهيرها ؟ » وأغراه الإعلان بدخول المسابقة ، فهو الآن فى السابعة والثلاثين ، وقد آن الأوان ليحقق لنفسه الشهرة . ولكن هل بلغ من الإحاطة بالعلم أو الفن أو التاريخ مبلغا يكفى لمناقشة مثل هـــذه الموضوعات دون أن يفضح ما فى تعليمه من قصور ؟ وقد وصف فى خطاب كتبه إلى مالزيرب فى ١٢ مايو ١٧٦٢ بحماسته العاطفية المتميزة تلك الرؤيا التى تراءت له أثناء هذه المسيرة . قال :

« وفجأة أحسست أن مئات الأضواء المتلالئة تخطف بصرى . وتزاحمت حشود من الخواطر النابضة بالحياة فى ذهنى بقوة وأختلاط جعلانى أضطرب أضطراباً لا يوصف واحسست برأسى يدوّم فى دوار كأننى مخمور ؛ وضاق

صدرى يخفقان عنيف . فلما عجزت عن السير لصعوبة التنفس أرتميت تحت شجرة على الطريق وقضيت نصف ساعة فى حال من الأنفعال الشديد حتى أننى حين قمت وجدت مقدمة صدريتى كلها مبللة بالدموع . . أواه ، لو أتيح لى أن أكتب ولو ربع ما رأيت وأحسست تحت تلك الشجرة ، فبأى وضوح كنت أميط اللثام عن كل تناقضات نظامنا الاجتماعى ! بأى بساطة كنت أبين أن الإنسان بفطرته خير ، وأن نظمنا هى التى جعلته شريراً[٦٢] » .

وهذه العبارة الأخيره ستكون نشيد حياته المتردد ، وتلك الدموع التى تدفقت على صدريته كانت متبعاً من المنابع العليا التى أنبثقت منها الحركة الرومانسية فى فرنسا وألمانيا . لقد كان فى وسعه الآن أن يسكب قلبه فى هجوم على كل تكلف باريس وتصنعها ، وفساد أخلاقها ، وزيف سلوكها المصقول ، وأباحية أدبها ، وشهوانية فنها ، وتعالى طبقيتها . وسفه أغنيائها الغليظ الذى تموله أبتزازاتهم من الفقراء ، وجفاف الروح لحلول العلم محل الدين . والمنطق محل الوجدان . إنه بإعلانه الحرب على هذا الانحلال يستطيع أن يبرر بساطة ثقافته ، وعاداته الريفية ، وقلقه وضيقه فى المجتمع ، ونفوره من حيث القيل والقال ، ومن الفكاهة التى تجردت من الاحترام . ويبرر احتفاظه المتحدى بايمانه الدينى وسط إلحاد أصحابه . لقد عاد فى أعماق نفسه كلفنيا كما كان ، وذكر بشىء من الحنين تلك العفة التى لقنها فى صباه . إنه بدخوله مسابقة ديجون سيرفع وطنه جنيف فوق باريس . وسيشرح لنفسه ولغيره لم كان سعيداً فى ليشارميت ، وشقياً غاية الشقاء فى صالونات باريس ؟

فلما وصل إلى فانسين كاشف ديدرو بنيته فى دخول المسابقة . فهلل ديدرو للفكرة ، وأشار عليه بأن يهاجم حضارة جيلهما بكل ما وسعه من قوة . فلن يجرؤ متسابق آخر على اتخاذ هذا الموقف ، وسيكون موقف روسو فريداً فى بابه(*) وعاد جان — جاك إلى مسكنه وهو يتحرق شوقا

(*) هناك جدل صغير يبهم القصة فى هذه النقطة . فقد روى ديدرو فى ١٧٨١ زيارة

لهدم الآداب والعلوم التى كان ديدرو يستعد للإشاده بها فى « الموسوعة أو القاموس العقلانى للعلوم والأداب والحرف : (١٧٥١ وما يليها) وكتبت « المقال » بطريقة فريدة جدا . . . فكرست له ساعات الليل التى جفانى فيها النوم ، وكنت أتأمل فى فراشى وجفناى مغمضتان ، وأدير فى ذهنى المرة بعد المرة عباراتى بعناية واهتمام لا يصدقان . . . وحالما فرغت من المقال دفعته لديدرو فرضى عنه ، وأشار ببعض تصويبات يجب فى رأية إجراؤها . . . وأرسلت المقال دون أن أخبر بأمره أحدا غيره ، اللهم إلا جريم فيما إذكر[٦٥] .

أما أكاديمية ديجون فقد توجت مقاله بالجائزه الأولى (٢٣ أغسطس ١٧٤٠) — وهى ماليه ذهبية وثلاثمائة فرنك ، وإتخذ ديدرو الإجراءات لها عهد فيه من حماسة ، لنشر المقال الذى سمى « مقالا فى الآداب والفنون والعلوم » وسرعان ماكتب إلى المؤلف يبلغه النبأ إن مقالك ساحر إلى حد فاق كل تصور ، فلم يكن لهذا النجاح ضريب على الأطلاق[٦٦] . وكأنى بباريس وقد أدركت أنه هاهنا ، فى قلب حركة التنوير تماماً ، قام رجل يتحدى عصر العقل ، ويتحداه بصوت سيصغى إليه العالم .

أما المقال فقد بدا فى استهلاله مشيدا بانتصارات عصره :

« أنه لمشهد جليل جميل أن نرى الإنسان يرفع نفسه — إن جاز هذا التعبير — من العدم بجهوده هو ؛ فيبدد بنور العقل كل السحب الكثيفة التى أكتنفته بالطبعة فسما فوق نفسه ، وحلق بالفكر إلى أجواز الفضاء ،

روسو له بطريقة يمكن التوفيق بينها وبين رواية روسو . قال : حين جاءنى روسو يستشيرنى فى الموقف الذى ينبغى أن يتخذه قلت له : أن موقفك هو الذى سيرفضه الآخرون ، فقال إنك على حق (٦٣) » وحوالى عام ١٧٩٣ روى مارمونتيل عن ديدرو إنه ثنى روسو عن إتخاذ موقف الموافقة ، فقال له روسو سأعمل بنصيحتك (٦٤) » .

وأشتمل بخطى عملاقة آفاق الكون الشاسعه كأنه الشمس ؛ وأجل من ذلك وأعجب أنه انكفأ إلى نفسه ليدرس الإنسان ويصل إلى معرفة فطرته وواجباته وهدفه . . كل هـــذه المعجزات رأيناها تجدد خلال الأجيال القليلة الأخيره[٦٧] » .

ولابد أن فولتير جاد بابتسامة الرضى عن فرحة هذا الأستهلال ، فهاهنا تلميذ جديد لجماعة « الفلاسفة » ؛ وللرفاق الطيبين الذين سيقضون على الخرافة « والعار » ؛ ثم ألم يكن لوشنقار الفتى هـــذا مساهما فى الموسوعة فعلا ؟ ولكن ما إن جاءت الصفحة التالية حتى إتخذت المناقشة وجهة مؤسفة . فقال روسو أن تقدم المعرفة هذا كله جعل الحكومات أعظم سطوة ، فسحقت حرية الفرد وإستبدلت بالفضائل البسيطه والكلام الصريح لعهد أكثر خشونه وبدائية ، نفاق اللباقة الاجتماعية .

« لقد أقصيت من بين الناس الصداقة المخلصة ، والاحترام الحقيقى ، والثقة الكاملةوتسترت الغيرة والريبة، والخوف ، وبرودة العاطفة،والتحفظ والكراهية، والغش ، دائماً وراء ذلك القناع الواحد الخداع ، قناع التأدب، والصراحة والكياسة اللتين يتباهى بها الناس ، ذلك القناع الذى ندين به لنور عصرنا وقيادته . . فلتطالب الآداب والفنون والعلوم بنصيبها الذى أسهمت به فى هذا العمل المفيد »[٦٨].

ويكاد فساد الفضائل والأخلاق نتيجة لتقدم المعرفة والفن أن يكون قانونا من قوانين التاريخ « لقدغدت مصرأم الفلسفة والفنون الجميلة،وسرعان ماغزاها الغزاة ». [٦٩] أما اليونان التى كان يسكنها الأبطال يوما ما فقد قهرت آسيا مرتين ، وكانت « الآداب» يومها فى المهد ، ولم تكن فضائل اسبرطة قد حلت محلها — مثلا إغريقياً أعلى — تلك الثقافة الأثينية المهذبة،وسفسطة السفطائيين ، وتماثل براكستيلبس الشهوانية ؛ فلما بلغت تلك « الحضارة » أوجها ، أطاح بها قليب المقدونى بضربةواحدة،ثم قبلت نير روما فى استكانة. أما روما فقد غزت عالم البحر المتوسط كله يوم كانت أمـــة من الفلاحين

والجند ، متمرسة بنظام صارم ، فلما أسلمت نفسها للذات الأبيقورية ، وأشادت ببذاءات أوفيد وكاتللوس ، ومارتيال ، باتت مرتعاً للرذيلة « وهزؤا بين الأمم ، وهدفاً لاحتقار الشعوب حتى الهمج منها (٧٠) . وحين عادت روما إلى الحياة فى حركة النهضة الأوربية ، عادت الفنون والآداب تنخر فى عافية المحكومين والحاكمين ، وخلفت إيطاليا أوهى من أن تثبت للهجوم . فأخضع شارل الثامن ملك فرنسا توسكانيا ونابلى دون أن يمتشق حساما تقريباً ، وعزت حاشيته كلها هذا النجاح غير المتوقع إلى انصراف أمراء إيطاليا ونبلائها باهتمام أعظم إلى تثقيف عقولهم دون الاهتمامات النشيطة والأعمال العسكرية (٧١) » .

والأدب ذاته عنصر من عناصر الفناء :

« يحكى أن الخليفة عمر حين سئل فى أمر مكتبة الاسكندرية وما يفعله بها أجاب : «وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها مايوافق كتاب الله ففى كتاب الله غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » وقد ساق أدباؤنا هذا الأسلوب فى التفكير على أنه بلغ غاية السخف ، ولكن لو أن البابا جريجورى الأكبر كان فى مكان عمر ، والإنجيل فى مكان القرآن ، لأحرقت المكتبة رغم ذلك ، وربما عد هذا أروع عمل قام به فى حياته »(٧٢) .

أنظر إلى تأثير الفلسفة الممزق فبعض « محبى الحكمة » هؤلاء يخبروننا بأنه ليس هناك شىء اسمه المادة ، وغيرهم يؤكدون لنا أنه لا وجود لشىء إلا للمادة وليس إله آخر غير الكون ذاته ؛ وفريق ثالث يعلن أن الفضيلة والرذيلة ليستا سوى اسمين ، وأنه لا اعتبار لشىء إلا للقوة والمهارة فهؤلاء الفلاسفة « يقوضون أسس إيماننا ويحطمون الفضيلة . إنهم يسخرون من الكلمات القديمة التى نستعملها مثل « الوطنية» و «الدين » ويكرسون مواهبهم لهدم وتشوية كل مانقدسه غاية التقديس (٧٣) . ومثل هذا الهراء ما كان ليعمر فى العصور القديمة بعد موت صاحبه ، أما الآن فبفضل الطباعة « ستبقى إلى الأبد . تأملات هوبز وسينوزا المؤذية . إذن فاختراع الطباعة كان من أفدح

الكوارث فى تاريخ الإنسانية ، ومن السهل أن نرى أن الملوك فى المستقبل سيحرصون على اقصاء هذا الفن الرهيب عن ممالكهم حرصهم من قبل على تشجيعه » (٧٤).

ولنلاحظ ماأوتيت الشعوب التى لم تعرف قط الفلسفة أو العلم أو الأدب من قوة وتفوق ؛ الفرس فى عصر كورشن أو الألمان كما وصفهم تاسيتوس ، أو « فى زماننا هذا الأمة البسيطة (سويسرة) التى لم تقو حتى الشدائد والكوارث على قهر بسالتها المشهورة ، والتى لم يستطع أى مثال أن يفسد أمانتها » وأضاف الجنيف الفخور إلى هذه الشعوب « تلك الأمم السعيدة التى لم تعرف حتى أسماء الكثير من الرزائل التى يصعب القضاء عليها ، متوحشى أمريكا الذين لم يتردد مونتينى فى تفضيل طريقة حكمهم البسيطة الفطرية ، لا على قوانين أفلاطون فحسب ، بل على أكمل الرؤى التى تستطيع الفلسفة أن تستشرفها »(٧٥).

إذن فأى نتيجة ينبغى أن نخلص إليها ؟ هى أن « الترف والإسراف ، والرق ، كانت فى جميع الأجيال سوط عذاب سلط على جهود كبريائنا للخروج من حالة الجهالة السعيدة تلك التى وضعتنا فيها حكمة العناية الإلهية . فليتعلم البشر ولو مرة أن الطبيعة كانت تحميهم من العلم ، تماماً كما تخطف الأم سلاحاً خطراً من يدى ولدها » (٧٦) .

والجواب عن سؤال الأكاديمية العالمة هو أن العلم إذا تجرد من الفضيلة كان فخاً ، وإن التقدم الحقيقى الوحيد هو التقدم الخلقى ، وإن رقى العلم قد أفسد أخلاق البشر أكثر مما طهرها ، وإن الحضارة ليست ارتقاء الإنسان إلى وضع أسمى ، بل سقوطه من بساطة ريفية كانت فردوس البراءة والسعادة.

وقبيل ختام المقال كبح روسو جماح قلمه وألقى ببصره فى شىء من الخوف على أشلاء العلم ، والفن ، والأدب ، والفلسفة ، التى خلفها فى إثره وتذكر أن صديقه ديدرو يعد موسوعة كرسها لتقدم العلم . فاكتشف فجأة أن بعض الفلاسفة — كبيكن وديكارت — كانوا « معلمين عظاما » ورأى أن النماذج الحية من هذه السلالة ينبغى أن يرحب بهم حكام الدول مشيرين لهم . ألم يعين

شيشيرون قنصلا لروما ، وأعظم الفلاسفة المحدثين قاضياً لقضاة انجلتره[٧٧]؟ ولعل ديدرو حشر تلك السطور فى المقال ، ولكن جان جاك كان صاحب الكلمة الأخيرة :

« أما نحن البشر العاديين الذين لم تشأ السماء أن تحبونا مواهب عظيمة فلنظل فى جهالتنا . ولنترك لغيرنا مهمة تعليم الناس واجباتهم ، ولننصرف إلى القيام بواجباتنا . أيتها الفضيلة أيتها المعرفة السامية للعقول البسيطة أليست مبادئك منقوشة على كل قلب ؟ وهل نحن فى حاجة ، لكى نتعلم نواميسك إلى أكثر من . . الإصغاء لصوت الضمير ؟ هذه هى الفلسفة الصادقة التى يجب أن نتعلم القناعة بها [٧٨].

ولم تدر باريس أتأخذ هذا المقال مأخذ الجد ، أم تفسره على أنه محاولة ماكرة فى المبالغة والمفارقة كتبها المؤلف بخبث . وقال بعضهم (فيما روى روسو) [٧٩] أنه لم يصدق كلمة واحدة مما كتب . أما ديدرو الذى آمن بالعلم وضاق بقيود العرف والأخلاق فيبدو أنه استحسن مبالغات روسو باعتبارها عقاباً افتقر إليه المجتمع الباريسى . وأما حاشية الملك فقد حبذت المقال باعتباره توبيخاً للفلاسفة السفهاء الهدامين كانوا يستحقونه منذ أمدبعيد.[٨٠] ولابد أن نفوساً حساسة كثيرة ضاقت كهذا الكاتب البليغ بما فى باريس من ثرثرة حمقاء وبريق كاذب . وقد عبر روسو عن مشكلة تظهر فى كل مجتمع متقدم . فهل ثمرات التكنولوجيا تستأهل مافى الحياة المصنعة من عجلة ، وتوترات ، ومناظر ، وضجيج ، وروائح ؟ وهل التوتر يقوض الأخلاق؟ وهل من الحكمة أن نمضى وراء العلم إلى خراب شامل ، ووراء الفلسفة إلى اليأس من كل رجاء مشدد للعزائم ؟ .

وانبرى العديد من النقاد للدفاع عن الحضارة منهم بورد عضو أكاديمية ليون ، ولا ا عضر أكاديمية روان ، وفورميه عضو أكاديمية برلين ، ولا مس ستانسلاس لسكفنسكى ، الطيب القلب ملك بولندة السابق ودوق اللورين اللاحق . وأشار الأدباء إلى أن هذا الهجاء لم يزد على أن توسع

فى الشكوك التى أعرب عنها مونتينى فى مقاله « عن أكلة لحوم البشر » . وسمع غيرهم فيه صوت بسكال يرتد من العلم إلى الدين ، وبالطبع كان مئات من « اللاهوتيين والقديسين » قد أدانوا الحضارة منذ زمن بعيد باعتبارها مرضاً أو خطيئة . وكان فى وسع اللاهوتيين أن يزعموا أن « براءة » الحالة الطبيعية وسعادتها التى قال بها روسو ، والتى سقط منها الإنسان ، ليست إلا قصة جنة عدن معادة ، فحلت «الحضارة» محل «الخطيئة الأصلية» علة فى سقوط الإنسان ، وفى كلتا الحالتين قضت الرغبة فى المعرفة على سعادة الإنسان . أما المفكرون المعتزون بعلمهم مثل فولتير فقد عجبو لرحل فى السابعة والثلاثين يكتب هذه المرثية الصبيانية ليهاجم منجزات العلم ، ونعمة السلوك المهذب ، وإلهامات الفن . وإما الفنانون أمثال بوشيه فلعلهم كانوا يتلوون ألما تحت سوط روسو ، ولكن فنانين آخرين مثل شاردان ولا تور كان فى وسعهم أن يرموه بالتعميم العشوائى ، وأما الجنود فقد سخروا من إشادة هذا الموسيقار الرقيق بالصفات العسكرية وبالتأهب الدائم للحرب .

واعترض جريم ، صديق روسو ، على أى رجوع إلى « الطبقية » فقال متعجبا «يا له من هراء شيطانى ! : ثم سأل سؤالا شائكاً ، ما الطبقية[٨١]؟ فلقد لاحظ بيل أنه لا تكاد توجد كلمة تستعمل استعمالا أكثر غموضاً من كلمة ... الطبيعة . . . وليس من المؤكد « أنه لأن شيئاً ما مصدره الطبيعة فهو إذن خير وصواب : فنحن نرى فى النوع البشرى أشياء سيئة جداً مع أنه لا يتطرق إلينا شك فى انها من عمل الطبيعة ».[٨٢] ولا ريب أن مفهوم روسو عن الطبيعة البدائية كان تصويراً رومانسيا للطبيعة فى حالتها المثالية ، فالطبيعة (أى الحياة دون تنظيم وحماية اجتماعيين) « حمراء فى الناب والمخلب » وناموسها الأساسى هو : اقتل وإلا قتلت . والطبيعة التى أحبها جان — جاك ؛ كما يتجلى حبه فى قيقيه أو كلارنس كان ضربا متحضرا من الطبيعة ، روضها وهذبها الإنسان . والحق أنه لم يرد أن يرتد إلى الأحوال البدائية بكل ما انطوت عليه من قذارة ، وخطر ، وعنف بدنى ، إنما أراد أن يعود إلى الأسرة الأبوية التى تفلح الأرض وتعيش على ثمارها ، وهفت

نفسه إلى التحرر من قواعد المجتمع المهذب وقيوده — ومن الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب الاعتدال والعقل . وقد أبغض باريس وحن إلى شارميت وقبيل ختام حياته ، فى كتابه « أحلام جوال وحيد » صور هذه الفكرة القاصرة تصويرا مثاليا فقال :

ولدت أكثر الناس ثقة بالناس ، ولم تخذل هذه الثقة ولو مرة واحدة طـــوال أربعين سنة . فلما وقعت فجأة بين صنف آخر من الأشخاص والأشياء انزلقت إلى مثات الفخاخ ..واقتنعت أنه ليس فى مظهر الابتسامات المتكلفة التى أغدقت على غير الغش والكذب ، فانتقلت بسرعة من النقيض إلى النقيض . . . . وأصبحت أشمئز من الناس ... وأنا لم أعتد قط اعتيادا حقيقيا على المجتمع الحضرى الذى كل ما فيه هم وإكراه والتزام ، والذى يجعلنى استقلالى الفطرى عاجزاً فيه على الدوام عن ألوان الخضوع التى لا مندوحة عنها لكل من يريد العيش بين الناس (٨٣) .

وفى « الاعترافات » سلم فى شجاعة بأن هذا « المقال » الأول (كان مفتقرا الافتقار كله إلى المنطق والنظام وإن زخر بالقوة والحرارة ؛ فهو أضعف ماكتبت إطلاقاً من حيث الحجه ، وأخلاه من الإيقاع والانسجام» (٨٤)

ومع ذلك فقـــد رد على نقاده بقوة ، وأكد مفارقاته من جديد . ومجاملة لستانسلاس استثنى شيئاً واحدا : فقال أنه بعد الروية قرر إلا تحرق المكتبات أو تغلق الجامعات والأكاديميات . «لأننا لن نجنى من وراء هذا إلا إغراق أوربا مرة أخرى فى دياجير الهمجية (٨٥) ؛ و «حين يفسد البشر فإن من الخير لهم أن يكونوا متعلمين عن أن يكونوا جهلة» (٨٦) . ولكنه لم يعدل عن أى فقرة من اتهـــامه للمجتمع الباريسى . ودليلا على انسحابه منه أقلع عن لبس السيف والضفيرة الذهبية والجوارب البيضاء ، وارتدى ما يرتديه رجال الطبقة الوسطى من رداء بسيط وباروكة أصغر . قال مارمونتيل « وهكذا منـــذ تلك اللحظة اختار الدور الذى سيلعبه ، والقناع الذى سيلبسه .» فإن كان هذا قناعا فإنه أحسن لبسه ، وأصر عليه إصراراً شديداً ، حتى لقد أصبح جزءاً من صميم الرجل وغير وجه التاريخ .

٦ — باريس وجنيف ١٧٥٠ — ٥٤

ف ديسمبر ١٧٥٠ اشتد على روسو مرض المثانة حتى ألزمه الفراش ستة أسابيع وزادته هـــذه المحنة نزوعا إلى الاكتئاب والعزلة ، وأرسل إليه معارفه الأغنيـــاء اطباءهم ليعودوه ، ولكن تطبيب ذلك الزمان لم يؤهلهم لمساعدته « فكلما امتثلت لأوامرهم ازددت شحوبا ونحولا وهزالا . ولم يوح لى خيالى ... على هذا الجانب من القبر ، بغير الآلام المتصلة كابدتها من الرمل والحصاة وحصر البول ، وكان كل ما يخفف من آلام غيرى من المرضى كتقيع الشعير ، والحمامات والفصد — يضاعف من عذابى»(٨٨).

وفى مطلع عام ١٧٥١ انجبت له تريز طفلا ثالثاً تبع أخويه إلى ملجأ اللقطاء . وقد علل هذا فى فترة لاحقة بأنه كان أفقر من أن يربى أطفالا ، وأنه لو وكلهم إلى آل لقاسير لكان فى ذلك بوارهم ، وأنهم كانوا سيعبثون عبثا منكرا بعمله كاتبا وموسيقيا وأكرهه المرض على الاستقالة من وظيفته صرافاً لدويان دفرانكوى رالتخلى عن دخله منها ، وراح منذ الآن يكسب معظم قوته بنسخ كراسات الموسيقى بواقع عشرة سنوات للصفحة . ولم يتلق روسو أى دخل من بيع « المقال » سواء كان السبب اهمال ديدرو أوشح الناشرين وتبين أن موسيقاه اكسب له من فلسفته .

وفى ١٨ اكتوبر ١٧٥٢ ، ويفضل نفوذ دوكلو ، مثلت أوبريت روسو « عراف القرية » أمام الملك والبلاط فى فونتنبلو ، ولقيت من النجاح ما أتاح لها عرضا ثانيا بعد أسبوع وظفرت حفلة للجمهور فى باريس (أول مارس ١٧٥٣) باستحسان أشمل ، ووجد المؤلف المعتكف نفسه مرة أخرى رجلا يشار اليه بالبنان . وكان هذا « الفاصل » الصغير ، الذى ألف روسو كلماته وموسيقاه ، أشبه باللحن المصاحب « المقال » : فالراعية كوليت ، التى احزنتها مغازلات كولان لفتيات المدينة ، يرشدها عراف القرية إلى استمالته ثانية بمغازلة غيره من الرجال ، فيغار عليها كولان ويعود

اليها ، ثم ينشدان معا أغانى راقصة تشيد بحياة الريف وتذم حياة المدينة . وحضر روسو الحفلة الافتتاحية وكاد يرضى عن المجتمع بعد خصام .

« غير مسموح بالتصفيق أمام الملك ، وعليه فقد كان كل شىء مسموعا ، وهذا يخدم المؤلف والتمثيلية . وسمعت من حولى همس النساء اللاتى بدون فى حسن الملائكة . وكانت الواحدة تقول للأخرى فى صوت خافت : « هذا رائع ، هذا خلاب ، ليس هناك لحن واحد لاينفذ الى الفؤاد » وقد أثار دموعى سرورى بأننى أشعرت هذا العدد الكبير من الأشخاص اللطفاء بهذه العاطفة ، ولم استطع أن أمسكها فى اللحن الثنائى الأول حين لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى يبكى ». (٨٩)

فى ذلك المساء بعث اليه الدوق دومون كلمة يطلب اليه الحضور الى القصر فى الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ليقدم الى الملك ، وأضاف الرسول أن من المتوقع أن ينفح الملك المؤلف معاشا . ولكن مثانة روسو أفسدت الخطة . يقول :

« أيصدق أحد أن ليلة هذا النهار الرائع كانت لى ليلة عذاب وحيرة ؟ فقد كان أول خاطر لى إننى بعد أن أقدم للملك سأضطر إلى الانسحاب غير مرة وكانت هذه الضرورة قد سببت لى معاناه شديدة فى المسرح : وقد تعذبنى فى الغد وأنا فى البهو أو فى حجرة الملك ، بين جميع العظماء ، منتظرا خروج جلالته . لقد كانت علتى هى السبب الأهم فى الحيلولة بينى وبين الاختلاط بالجماعات الراقية والاستمتاع بحديث الحسان ... ولا يستطيع غير من خبر هذا الموقف أن يحكم بالفزع الذى يوحى به التعرض لخطره (٩٠)

وعليه فقد أرسل كلمة يعتذر من الحضور . وبعد يومين وبخه ديدرو على تضييعه فرصة كهذه تتيح رزقا أنسب له ولتريز » وتحدث عن المعاش بحرارة أكثر مما كنت أتوقع فى موضوع كهذا من فيلسوف .... ومع أننى شكرت له تمنياته الطيبة ، فإننى لم استطع أن أسيغ مبادئه ، الأمر الذى أثار بيننا نقاشا حاميا هو أول ما وقع بيننا من نزاع » (٩١) على أنه لم يحرم كل

وربح من وراء تمثيليته . فقد أعجبت بها مدام ديومبادور إعجابا حملها على أن تمثل هى نفسها دور كوليت فى عرضها الثانى فى البلاط ، وأرسلت له خمسين جنيها ذهبياً ، وأرسل له لويس مائة. (٩١) وراح الملك نفسه ، « بأنكر صوت فى مملكته يتغنى بلحن كوليت الحزين « لقد فقدت خادمى » — وكان هذا إرهاصا بظهور جلوك .

وكان روسو خلال ذلك يعد مقالات عن الموسيقى للموسوعة « وقد كتبها فى عجلة شديدة ، وكتابة سيئة لهذا السبب ، فى الشهور الثلاثة التى أتاحها لى ديدرو . وقسا رامو فى نقد هذه المقالات فى كتيب سماه « أخطاء حول الموسيقى فى الموسوعة » (١٧٥٥) وعدل روسو فى المقالات ، وجعلها أساسا لـ « قاموس للموسيقى » (١٧٦٧) واعتبره معاصروه ، باستثناء رامو ، موسيقيا من أعلى طراز (٩٣) وينبغى أن نعده الآن مؤلفاً مجيدا فى فرع صغير من فروع الموسيقى ، ولكنه كان ولاشك أكثر من كتب عن الموسيقى طرافة وامتاعا فى ذلك الجيل .

ولما غزت فرقة من مغنى الأوبرا الإيطالية باريس فى ١٧٥٢ تفجر الجدل حول مزايا كل من الموسيقى الفرنسية والإيطالية . وقفز روسو إلى المعركة بـ « رسالة فى الموسيقى الفرنسية » (١٧٥٣) يقول جريم إنه « يثبت فيها إستحالة تلحين الموسيقى فى الفاظ فرنسية ، وأن اللغة الفرنسية لا تصلح إطلاقا للموسيقى ، وإنه لم يكن قط للفرنسيين ولن يكون لهم أبدا موسيقى (٩٤) » . وكان روسو بكليته فى صف إتساق الألحان (الميلوديا) . كتب فى روايته « أحلام جوال وحيد » « يقول « غنينا أغنية قديمة كانت أفضل كثيراً من النشاز الحديث (٩٥) » وأى جيل لم يسمع تلك الشكوى ؟ وفى مقاله « الأوبرا » الذى تضمنه قاموسه الموسيقى أعطانا إلماعا لفاجنر ، فعرف الأوبرا بأنها « مشهد درامى غنائى يحاول الجمع من جديد بين جميع مفاتن الفنون الجميلة فى تمثيل حركة عاطفية مشبوبة . . . ومقومات الأوبرا هى القصيدة الشعرية ، والموسيقى ، والزخرفة : فالشعر يتحدث إلى الروح ،

والموسيقى إلى الأذن ، والصورة إلى العين . . . والدرامات اليونانية كان يمكن أن تسمى أوبرات [٩٦] » .

وحوالى تلك الفتره (١٧٥٢) رسم موريس كنتان دلاتور صورة لروسو بالباستل[٩٧] ، التقط فيها ملامح جان — جاك مبتسما : وسيما ، أنيقا ، وقد أنكر ديدرو الصورة لأنها لا تتفق والحقيقه[٩٨] . ووصف ما رمونتيل روسو كما رآه فى تلك السنوات فى حفلات عشاء دولباخ فقال « كان قد ربح لتوه الجائزة . . فى ديجون . . . فيه تأدب يشوبه الإحجام ، قد . . . يبلغ من التواضع مبلغا يقرب من التذال . ترى عدم الثقه واضحة من خلال تحفظة المشوب بالخوف . وكانت عيناه المطرقتان ترقبان كل شىء بنظرة ملؤها الإرتياب الحزين . وقل أن شارك فى حديث ، وندر أن كشف لنا عن دخيلة نفسة[٩٩] » .

وغدا مركز روسو بعد تنديده بالعلم والفلسفه بهذا العنف حرجا بين جماعة الفلاسفة الذين سيطروا على الصالونات . وكان مقاله قد ألزمه بالدفاع عن الدين . وتروى مدام دينيه أنه فى عشاء دعت إليه مدام كينو ، وجدت المضيفة أن الحديث عن الدين أصبح نابياً ، فرجت ضيوفها « أن يحترموا على الأقل الدين الطبيعى » وبادر بالرد المركيز دسان — لامبير ، الذى كان مؤخراً مزاحما لفولتير على حب مدام دوشاتايه ، وسيكون عما قليل مزاحما لروسو على حب مدام دوديتو فقال « أنه لا يستحق من الاحترام أكثر من أى دين آخر . « وتواصل مدام دينيه كلامها فتقول.» : فلما سمع روسو هذا الرد غضب وتمتم بكلام أضحك الجماعة عليه . قال « إذا كان من الجبن أن يسمح الإنسان لآخر أن يغتاب صديقاً فإن من الاجرام أن يسمح لأحد بأن يتحدث بسوء عن إلهه الذى هـــو حاضر ، وأنا أو من بالله ياساده . . . وإتجهت إلى سان لامبير وقالت له « أنك ياسيدى وأنت شاعر ، ستوافقنى على أن وجود كائن خالد ، كلى السلطان ، عظيم الذكاء ، هو البذرة لأروع ضروب الحماسة » . فأجاب « اعترف بأنه جميل أن نرى هذا إلا له يوجه وجهه إلى الأرض ، . . . ولكنها بذرة

لحماقات »، وقاطعه روسو قائلا « سيدى ، سأبرح الحجرة أن زدت كلمة واحدة » . والواقع أنه كان قد قام عن كرسيه وكان يفكر جدياً فى الهروب لولا أن أعلن عن قدوم الأمير[١٠٠] » .

ونسى الجميع موضوع الجدل . وفى رواية وردت فى مذكرات مدام دينيه، أن روسو قال لها أن هؤلاء الكفره يستحقون النار الابدية[١٠١] .

وجدد رسو الحرب على الحضارة فى مقدمة مسرحيته الهـــزلية « نارسيس » ، التى مثلتها فرقة الكوميدى فرانسيز فى ١٨ ديسمبر ١٧٥٢ « أن الميل إلى الآداب يكون دائماً إيذانا فى الشعب ببداية فساد سرعان ما يعجل به هذا الميل . ولا ينبعث هذا الميل فى أمة إلا من منبعين خبيثين . . . التبطل ، وشهوة الامتياز [١٠٢]» . ومع ذلك استمر حتى عام ١٧٥٤ يختلف إلى « مجمع » دولباخ المؤلف من أحرار الفكر . هناك استمع مارمونتل ، وجريم ، وسان — لامبير ، وغيرهم إلى الابيه بتى يقرأ مأساة من تأليفه ، فوجدوها عملا تافها يدعو للرثاء ، ولكنهم أطروها اطراء جميلا ، وكان الابيه قد ثمل بالخمر إلى حد أعماه عن إدراك ما فى ثنائهم من تهكم ، فأنتفخت أوداجه رضى وغبطة ، أما روسو الذى غاظه نفاق أصحابه فقد انقض على الأب بتقريع لا هوادة فيه ، فقال له « أن تمثيليتك لا قيمة لها . . . وكل هؤلاء السادة يسخرون منك ، فانصرف وعد لتكون قسيساً فى قريتك[١٠٣] » . ووبخ دولباخ روسو على نظاظته ، فانصرف غاضباً وانقطع عن الجماعة عاماً .

لقد دمر رفاقه كثلكته ، ولكنهم لم يدمروا إيمانه بمقومات المسيحية. وعادت بروتستنتية صباه تطفو فى الوقت الذى تغوص فيه كثلكته . فتصور جنيف صباه كاملة مبرأة من العيوب ، وخيل إليه أنه سيكون فيها أكثر راحة واطمئناناً منه فى بلد أضنى روحه كباريس . ولو عاد إلى جنيف لاكتسب من جديد لقبا يبعث على الفخر ، هو لقب المواطن ، ومعه الامتيازات الخاصه التى ينطوى عليها هـــذا اللقب . وعليه ففى يونيو سنة ١٧٥٤ استقل مركبة البريد إلى شامبرى وهناك وجد مدام دفاران

فقيرة تعسة ، ففتح لها كيس نقوده ، ثم وأصل رحلته إلى جنيف ، هناك رحب به القوم أبنا ضالا قد ثاب إلى رشده : ويبدو أنه وقع إقراراً يؤكد فيه من جديد عقيدته الكلفنية[١٠٤] ؛ واغتبط رجال الدين الجنيفيون باستعادتهم « موسوعيا » إلى حظيرة إيمانهم الانجيلى ورد إليه اعتباره مواطنا ، وراح بعدها يوقـــع فى فخر « جان ـــ جاك روسو ، المواطن » : قال :

« تأثرت تأثرا بالغاً بما لقيت من عطف . . . المجلس (المدنى) والمجمع (الكنسى) وعظيم احترام القضاة ، والوزراء ، والمواطنين ، وحفاوتهم بى . . . . حتى إننى اقلعت عن فكرة العودة إلى باريس إلا لفض إدارة البيت ، والعثور على عمل للسيد لفاسير وزوجته ، أو تدبير أمر معاشهما ، ثم العودة مع تريز إلى جنيف لأستقر فيها ما بقى لى من عمر[١٠٥] » .

وإستطاع الآن أن يتذوق جمال البحيرة وشواطئها تذوقا أكمل مما فعل فى صباه « لقد احتفظت بذكرى حية . . . لطرف البحيرة الأبعد ، وكتبت له وصفا بعد سنوات فى هلويز الجديدة » : ودخل الفلاحون السويسريون فى حلم الفردوس الريفى الذى سيصفه فى تلك الرواية : فهم ملاك لمزارعهم لا يخضعون لضريبة رؤس أو سخرة ، يشغلون أنفسهم بالحرف المنزلية فى الشتاء ، ويقفون فى قناعة بمنأى عن ضجيج العالم وصراعه . وكانت ذكرى دويلات المدن السويسريه عالقة بذهنه وهـــو يصف مثله السياسى الأعلى فى كتاب « العقد الاجتماعى » .

وفى أكتوبر ١٧٥٤ قصد باريس على وعد بالعودة منها سريعاً . ووصل فولتير إلى جنيف بعد رحيل روسو عنها بشهرين ، واستقر به المقام فى فيلا ديليس . واستأنف جان ـــ جاك فى باريس صداقته لديدرو وجريم ، دون أن تبلغ من الثقة ما بلغته من قبل . ولما نمى إليه نبأ موت مدام دولباخ كتب إلى البارون خطاب تعزية رقيقا ؛ وتصالح الرجلان ، وعاد روسو يؤاكل الزنادقة ، وظـــل ثلاثة أعوام أخر يبدو من جميع

الوجوه واحداً من جماعة الفلاسفة . ولم يبحث كثيراً فى عقيدته الكلفنيه الجديدة . واستغرقه الآن الإشراف على طبع « مقاله » الثانى الذى قدر له أن يهز الدنيا أكثر مما هزها سابقه .

٧ — جرائم الحضارة

فى نوفمبر ١٧٥٣ أعلنت أكاديمية ديجون عن مسابقة أخرى ، أما السؤال الجديد فكان « ما الأصل فى عدم المساواة بين البشر ، وهل يقره قانون الطبيعة » ؟ يقول روسو « استرعى أنتباهى هذا السؤال الخطير ، وأدهشنى أن الأكاديمية اجترأت على طرحه للنقاش ، ولكن مادامت قد أظهرت شجاعتها . . . فقد عكفت فورا على مناقشته[١٠٦] » . واختار لبحثه هذا العنوان « مقال فى أصل وأسس عدم المساواة بين البشر » . وفى شامبرى فى ١٢ يونيو ١٧٥٤ أهدى هذا المقال الثانى « إلى جمهورية جنيف » وإضاف خطاباً موجهاً إلى « سادتها الحاكمين » الرفيعى الشرف والمجد ، « يعرب عن بعض الاراء الفذه فى السياسة :

« فى بحوثى عن خير القواعد التى يمكن أن يرسيها الإدراك السليم عن تكوين الحكومة أدهشنى أن أجدها كلها تحققت فعلا فى حكومتكم ، بحيث أننى لو لم أولد بين أسوار مدينتكم لرأيته لزاما على أن أقدم هذه الصورة عن المجتمع الإنسانى إلى ذلك الشعب الذى يبدو أنه انفرد دون سائر الشعوب بحيازته لاعظم مزاياها ، ووفر لنفسه أفضل وقابة من مساوئها[١٠٧] » .

ثم هنأ جنيف بعبارات تصدق تماماً على سويسرة اليوم :

« بلد انصرف عن شهوة الغزو الهمجيه لا فتقاره السعيد للقوة ، وأمن بفضل موقعه الأسعد حظا من خوف الوقوع غنيمة فى يد غيره من الدول : مدينة حرة تتوسط عدة أمم ، لا مصلحةلواحدة منها فى العدوان عليها ، ومصلحة كل منها فى منع غيرها من هذا العدوان[١٠٨] » .

وبارك معبود الثورة الفرنسية المستقبل تلك القيود المفروضة على الديمقراطية فى جينف ، حيث لا حق فى التصويت إلا لثمانية فى المائه من السكان :

« لكى نتقى خدمة المصالح الخاصه والمشروعات الطائشة وجميع البدع الخطرة التى إنتهت بالقضاء على الأثنين ، ينبغى إلا تطلق الحرية لكل رجل فى اقتراح القوانين الجديدة على هواه ، بل يقصر هذا الحق على القضاة دون غيرهم . . . فقدم القوانين هو أهم عامل فى إضفاء القدسية والاحترام عليها ، والناس سرعان ما يتعلمون الاستهانة بالقوانين التى يرونها تبدل وتغير كل يوم ، ولو اعتادت الدول أن تهمل تقاليدها القديمة بحجة التحسين والإصلاح ، لجلبت من الشرور فى الغالب ما هو اسوأ مما تحاول أن تقضى عليه[١٠٩] » .

أكان هذا مجرد ذريعة يلتمس بها العودة إلى المواطنة الجنيفية ؟

أما وقد تحقق لروسو هذا الهدف فإنه قدم مقاله لأكاديمية ديجون . ولم يمنح الجائزة ، ولكن حين نشر المقال فى يونيو ١٧٥٥ ، سره أن يصبح من جديد الحـــديث المثير لصالونات باريس . ذلك أنه لم يترك مفارقة إلا تناولها ليثير الجدل حولها . فهو لم ينكر عدم المساواة « الطبيعى » أو الالزامى ، وسلم بأن هناك افرادا هم بحكم مولدهم أصح أو أقوى من غيرهم فى البدن أو الخلق أو الذهن . ولكنه زعم أن كل ضروب عدم المساواه الأخرى ــ الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، غير طبيعية ، نشأت حين ترك البشر « الحالة الطبيعية » . وأقاموا الملكية الخاصة وأسسوا دولا تحمى الثروه والامتياز .

« فالإنسان بطبيعته طيب[١١٠] » ، وأكثر ما يجعله شريرا تلك النظم الاجتماعية التى تقيد أو تفسد ميوله للسلوك الطبيعى . وقد صور روسو حالة فطرية مثالية كان معظم الناس فيها أقوياء الأطراف ، خفاف الأقدام ،

حديدى البصر(*) ، يعيشون حياة الحركة والعمل ، حياة كان الفكر فيها دائماً أداة للعمل وتابعا له ، لا بديلا مضعفا عنه . ثم قارن بين هذه الصحة الفطرية وبين الأمراض المتكاثرة التى تنجم فى الحضارة عن الثروة والأعمال التى تتطلب القعود الكثير :

« أن أغلب عللنا من صنعنا ، وكان يسيراً علينا أن نتجنبها ، كلها تقريبا ، بالتزام أسلوب الحياة البسيط ، المتماثل ، المنعزل ، الذى قررته الطبيعة . فإذا كانت الطبيعة. قد قضت بأن يكون الإنسان سليما صحيحاً، فأنى أجرؤ على الزعم بأن حالة التفكير والتأمل حالة تناقض الطبيعة ، وأن (l'homme qui médite est un aminal dépraré.)

وحين نفكر فى بنية المتوحشين القوية — على الأقل أولئك الذين لم ندمرهم بمشروباتنا الروحية — وفى أنهم لايكادون يعانون من أى علل غير الجروح والشيخوخة ، يغرينا هذا بالأعتقاد بأننا فى تتبعنا لتاريخ المجتمع المدنى ؛ إنما نحن نروى تاريخ أمراض البشر[١١٢] » .

ويسلم روسو بأن هذه الحالة المثالية « الحالة الطبيعية .. .. ربما لم توجد قط ؛ وأغلب الظن أنها لن توجد أبدا[١١٣] » . فهو لا يعرضها بوصفها حقيقة واقعة من حقائق التاريخ بل مقياسا للمقارنة . وهـــذا ماعناه بهذا الاقتراح المفزع « فلنبدأ إذن بتنحية الحقائق جانبا لأنها لاتمس السؤال . والتحقيقات التى يصح أن نخوض فيها .... يجب ألا تعالج على أنها حقائق تاريخية ، بل حجج مشروطة وفرضية[١١٤] » : على أننا قد نكون فكرة عن حياة الإنسان قبل قيام النظام الاجتماعى ، بملاحظة حال الدول الحديثة وسلوكها ، لأن « الدول اليوم مازلت فى حالة طبيعية[١١٥] » . فكل منها ذات سيادة فردية ، لا تعرف فعلا أى قانون إلا قوانين المكر والقوة ، ويجوز أن نفرض أن الإنسان الذى سبق تكوين المجتمعات كان يحيا فى حالة مشابهة من السيادة الفردية ، وعدم الأمان ، والفوضى

(*) « مالست أياه ، فإنه عندى الله والفضيلة » نيتشه[١١١] الإنسان الذى يتأمل هو حيوان فاسد :

الجماعية ، والعنف بين الحين والحين . ولم يكن مثل روسو الأعلى هو هذه الحياة المتخيلة التي سبقت المجتمعات [لأن المجتمع قد يكون قديما قدم الإنسان] ، بل مرحلة لاحقة من التطور عاش فيها الناس فى أسر أبوية النظام وجماعات قبلية ، ولم ينشئوا بعد نظام الملكية الخاصة « إن أقدم المجتمعات قاطبة ، والمجتمع الطبيعى الوحيد ، هو الأسرة[١١٦] » .

ذلك كان العصر الذى بلغت فيه سعادة البشر أقصاها . حقاً أنه لم يخل من عيوب ، وآلام ، وعقوبات . ولكنه خلا من القوانين . اللهم إلا السلطة الأبوية والنظام الأسرى ؛ « لقد كانت هـــذه الحالة فى جملتها أفضل حالة يستطيع الإنسان ممارستها ، فلم يكن ليعدل عنها لولا أن اصابه خطب فادح[١١٧] . وهذا الخطب هو إقامة الملكية الفردية ، وما نجم عن ذلك من تفرقة اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية ، ومعظم شرور الحياة الحديثة .

« أن أول رجل سور قطعة من الأرض ثم خطر له أن يقول « هذه ملكى » ووجد الناس من البساطة بحيث يصدقونه ؛ هذا الرجل كان المؤسس الحقيق للمجتمع المتمدن . ليت شعرى كم من الجرائم ، والحروب ، والاغتيالات ، كم من الفظائع والكوارث ، لم يكن فى إستطاعة أى إنسان أن ينقذ البشرية منها باقتلاع الأوتاد المحددة للأرض أو ردم القناة المحيطة بها والصياح بإخوانه أن احذروا الاستماع إلى هذا النصاب ، إنكم إن نسيتم أن ثمرات الأرض ملك لنا جميعاً ، وأن الأرض ذاتها ليست ملكا « لأحد، كان فى ذلك هلاككم[١١٨] » .

ومن هذا الأغتصاب الذى سمح به الناس انبعثت لعنات الحضارة : كالأنقسامات الطبيعية ، والعبودية ، ورق الأرض ، والحسد ، والسرقة ، والحرب ، والظلم القانونى ، والفساد السياسى ، والغش التجارى ، والأختراعات ، والعلم والأدب ، والفن ، و « التقدم » — وبكلمة واحدة ، الانحطاط . فلحماية الملكية الخاصة نظمت القوة ثم أصبحت هى الدولة ، ولتيسير الحكم طور القانون لتعويد الضعفاء الإذعان للاقوياء

بأقل قدر من الإكراه والتكلفة[١١٩] . وهكذا نشأ هذا الوضع الذى نرى فيه « القلة المميزة تكتظ بالكماليات ، على حين تفتقر الجماهير الجائعة إلى أبسط ضروريات الحياة[١٢٠] ». يضاف إلى هذه المظالم الأساسية طائفة أخرى متفرعة عنها « كالوسائل المخزية التى يمارسها الناس احياناً لمنع ولادة البشر ، والأجهاض ، وقتل الأطفال ، وخصى الذكور ، والأنحرافات الجنسية ، وترك الكثيرين من الأطفال الذين يقعون فريسة لإملاق أبويهم فى العراء أو قتلهم[١٢١] » . هـــذه الكوارث كلها مفسدة مضعفة ، والحيوانات لا تعرفها ؛ وهى تجعل « الحضارة » سرطانا ينهش جسد البشرية . وعلى نقيض هذا الفساد والإنحراف المتعدد الأشكال ، نجد حياة المتوحشين صحيحة ، سليمة ، رحيمة . أينبغى أن نعود إذن إلى الهمجية ؟ « إيجب أن تلغى المجتمعات إطـــلاقا ؟ وتبطل عبارة « ملكى » و « ملـــكك » ، ونعود إلى الغابة لنحيا بين السباع ؟ » لم يعد هذا فى وسعنا ، فسم الحضارة يسرى فى دمائنا ، ولن ننتزعه بالهروب إلى الغابات ، والقضاءعلى الملكية الخاصة ، والحكومة ؛ والقانون ، معناه الزج بالناس فى فوضى هى شر من الحضارة . « لن يستطيع الإنسان العودة أبدا إلى زمان البراءة والمساواة متى تركه[١٢٢] » . وقد تبرر الثورة ،لأن القوة قد تطيح عدلا بما إقامته القوة وساندته[١٢٣] ، ولكن الثورة ليست مستحبة الآن . وخير ما نستطيعه هـــو أن ندرس الأناجيل من جديد ، ونحاول تطهير دوافعنا الشريرة بممارسة أخلاق المسيحية[١٢٤] . وفى إستطاعتنا أن نجعل من العطف الفطرى على أخواننا البشر أساساً للأخلاق والنظام الاجتماعى . ونستطيع العزم على أن نحيا حياة أقل تعقيداً ، نقنع فيها بالضروريات ، ونحتقر أسباب البذخ والترف ، ونجتنب سباق « التقدم » وحماه . نستطيع أن ننبذ ما فى الحضارة من ضروب الزيف ، والنفاق ، والفساد ، واحداً بعد الآخر ، ونعيد تشكيل أنفسنا على الأمانة والطبيعية ، والاخلاص . نستطيع أن نترك ضوضاء مدننا وصخبها ، وأحقادها ، وفسقها ، وجرائمها ، ونذهب لنعيش فى بساطة الريف ومسئوليات

الأسرة وقناعتها . نستيطيع أن نطلق دعاوى الفلسفة ومسالكها المسدودة . ونعود إلى إيمان ديني يشد أزرنا حين نواجه الألم والموت » .

ونحن نحس اليوم شيئاً من التكلف فى هذا السخط البار بعد أن سمعنا هذا كله مائة مرة . فلسنا على ثقه من أن الشرور التى وصفها روسو تنجم عن الأنظمة الفاسدة أكثر مما تنجم عن طبيعة البشر ؛ وعلى أية حال فالطبيعة البشرية هى التى صنعت الأنظمة . ويوم كتب جان — جاك «مقاله» الثانى كانت الأشادة بذلك « الهمجى اللطيف المعشر . المتدفق العاطفة » قد بلغت ذروتها . ففى ١٦٤٠ كان ولتر هاموند قد نشر كتيبا « يثبت أن أهل مدغشقر أسعد شعوب الأرض[١٢٥] » . وبدا أن القصص التى رواها اليسوعيون عن هنود هورون وإيروكوا مصداق للصورة التى رسمها الروائى ديفو لخادم روبنصن كروزو اللطيف « فرايداى » . أما فولتير فكان يسخر عموماً من أسطورة الهمجى الشريف ؛ ولكنه إستخدمها بمرح فى قصته « الساذج » وداعبها ديدرو فى قصته « تذييل لرحلة بوجانفيل » ولكن هلفينيوس هزأ باشادة روسو بالهمجى مثلا أعلى[١٢٦] ، وزعم دوكلو — رغم أنه كان صديقاً وفيا لجان — جاك — أن « الهمج هم الذين تستشرى بينهم الجريمة ، وطفولة أمة ما ليست عصر براءتها[١٢٧] » . ويمكن القول على الجملة أن المناخ الفكرى كان مواتياً لنظرية روسو .

أما ضحايا مطاعن روسو فقد هدأوا ضمائرهم بالزعم بأن هذا المقال الثانى متكلف كسابقه . ووصفته مدام دود فان صراحة بأنه دجال[١٢٨] . وسخر الشكاك من إدعاءاته بسلامة عقيدته المسيحية . وبتفسيره الحرفى لسفر التكوين[١٢٩] وبدأ جماعة الفلاسفة يرتابون فيه لأنه يقلب خططهم الرامية إلى إستمالة الحكومة إلى أفكارهم فى الأصلاح الاجتماعى ؛ ولم يحبذوا إستثارة كراهيات الفقراء . وسلموا بحقيقة الاستغلال ، ولكنهم لم يروا أى مبدأ بناء فى أحلال الغوغاء محل القضاة . أما الحكومة فلم تحتج على إتهامات روسو . والراجح أن القصر لم ير فى المقال إلا تدريبا على الخطابة . وكان روسو فخور ببلاغته . فأرسل نسخة من المقال إلى فولتير . وترقب

فى شوق كلمة ثناء منه . وجواب فولتير درة من درر الأدب والحكمة وآداب السلوك الفرنسية . قال :

« تلقيت ياسيدى كتابك الجديد الذى يهاجم النوع الإنسانى . وأنى أشكرك عليه . وأنك لتسر الناس الذين تخبرهم بحقائق تهمهم ، ولكنك لن تقوم بذلك أعوجاجهم . إنك ترسم بألوان صادقة جداً فظائع المجتمع الإنسانى ، . . . وأن احدا لم يبذل قط مثل هذا الذكاء الكثير ليقنع الناس بأن يكونوا وحوشا . والمرء حين يقرأ كتابك تتملكه الرغبة فى أن يمشى على أربع [marcher à quatre pattes] ولكن بما أننى فقدت تلك العادة منذ أكثر من ستين عاماً ، فأنى لسوء الحظ أشعر أنه يستحيل على استئنافها . . .

« وإنى متفق معك على أن الآداب والعلوم كانت أحيانا علة الكثير من الشرور . . . [ولكنى] إقرر أنه لا شيشرون ، ولا قارو ، ولا لوكريتيوس ، ولا فرجيل ، ولا هوراس ، كان لهم أقل نصيب فى تحريمات ومصادرات ماريوس ، وصلا ، وانطونيوس ، وليبدوس ، وأوكتافيوس . . . وعليك أن تعترف بأن بتراركك وبوكاشيو لم يكونا السبب فيما عانته إيطاليا من متاعب داخلية ، وأن مزاح مارو لم يكن السبب فى مذبحة القديس برتولومى ، وأن مسرحية كورنيي « السيد » لم تثر حروب الفروند . إن الجرائم الكبرى قد إقترفها رجال مشهورون ولكنهم جهلة ، والذى جعل هذه الدنيا ، وسوف يجعلها على الدوام ، واديا للدموع هو جشع الناس الذى لا يشبع وغرورهم الذى لا يفتر .. أن الأدب يغذى الروح ، ويقومها ، ويعزيها . أنه يخلق مجدك فى ذات الوقت الذى تهاجمه فيه . . .

« لقد انبأنى السد شابوى أن صحتك سيئة للغاية . فعليك أن تحضر وتستردها فى جو وطنك ، وتستمتع بالحرية ، وتشرب معى لبن أبقارنا ، وتعيش على أعشابنا . وأنى ياسيدى بكل ، الفلسفة وكل التقدير المشرب بالمحبة ، خادمك المتواضع جداً ، المطيع جداً[١٣٠] .

ورد روسو التحية بمثلها ، ووعد بأن يزور فيللا المباهج عند عودته إلى سويسرة[١٣١] . ولكن حز فى نفسه كثيراً ذلك الاستقبال الذى استقبل به مقاله فى جنيف التى أهداها أياه بمثل هذا المديح السار . والظاهر أن الاوليجاركيه الصغيرة المحكمة التى تسلطت على الجمهورية أوجعتها بعض تعليقات ذلك المقال اللاذعة ، ولم تسغ تنديد روسو الشامل بالملكية ، والحكومة ، والقانون ، « لم أحس أن جنيفياً واحدا سر بما حواه المقال من حماسة قلبية[١٣٢] . وعليه فقد قرر أن الوقت لم يحن بعد لعودته إلى جنيف .

٨ — المحـــافظ

شهد عام ١٧٥٥ ، الذى نشر فيه المقال الثانى ، ظهور مقال طويل بقلم روسو فى المجلد الخامس من الموسوعة عنوانه ، مقال فى الاقتصاد السياسى . وهو جدير بالملاحظة لأنه خالف المقالين السابقين عليه فى بعض تفاصيله الهامة . ففى هذا المقال نرى الكاتب يجل المجتمع ، والحكومة ، والقانون ، باعتبارها نتائج طبيعية لفطرة الإنسان وحاجاته ، ويصف الملـــكية الخاصة بأنها عطية اجتماعية وحق أساسى . « من المؤكد أن حق الملكية أقدس حقوق المواطنة ، بل أنه من بعض الوجوة أهم من الحرية ذاتها . فالملكية هى الأساس الصحيح للمجتمع المدنى ، والضمان الحقيقى لتعهدات المواطنين[١٣٣] بمعنى أن الناس لن يعملوا فوق ما تتطلب أبسط حاجاتهم مالم يحتفظوا بالناتج الفائض لأنفسهم ، ليستهلكوه أو ينقلوه لغيرهم كما يشاءون . ويوافق روسو الآن على أن يورث الآباء ثروتهم لأبنائهم ، ويقبل فى اغتباط ما يتمخض عنه هذا من انقسامات طبقية . « مامن شىء أضر بالفضيلة وبالجمهورية من انتقال المراتب والثروات باستمرار بين المواطنين : ومثل هذه التغيرات هى الدليل على وجود مئات من ضروب الخلل والاضطراب ، وهى مصدرها فى الوقت نفسه ، ومن شأنها أن تقلب كل شىء رأساً على عقب وتفسده[١٣٤] .

ولكنه يواصل التنديد بالظلم الاجتماعى وبما فى القانون من محاباة طبقية . فكما أن من واجب الدولة أن تحمى الملكية الخاصة وورائتها القانونية ، كذلك

ينبغى أن يسهم أعضاء المجتمع ببعض ثروتهم لإعالة الدولة . وينبغى أن تفرض ضريبة صارمة على جميع الأشخاص بنسبة تصاعدية مع ثروتهم و « فائض ممتلكاتهم »[١٣٥]، وألا تفرض ضريبة على الضروريات ، وأن تفرض ضريبة مرتفعة على الكماليات ، وينبغى أن تمول الدولة نظاماً قومياً للتعليم . « أن الأطفال إذا نشئوا معاً (فى مدارس قومية) فى حضن المساواة وإذا أشربوا قوانين الدولة ومبادىء الإدارة العامة . . فلن نشك فى أنهم سيحبون بعضهم بعضاً كما يفعل الإخوة . ليصبحوا فى الوقت المناسب مدافعين وآباء الوطن الذى كانوا أبناؤه [١٣٦] . والوطنية خير من العالمية أو التظاهر الهزيل بالعطف العالمى [١٣٧]. »

وكما طغت النزعة الفردية على المقالين الأولين ، طغت النزعة الاجتماعية على مقال الاقتصاد السياسى . وهنا يصرح روسو لأول مرة بعقيدته الغريبة وهى أن فى كل مجتمع « إرادة عامة » فوق المجموع العددى لما يحبه الأفراد الذين يؤلفونه ومايكرهون . فالمجتمع ، فى فلسفة روسو المقطورة ، كائن اجتماعى له روحه الخاصة ؛

« أن الدولة هى أيضاً كائن معنوى ، يملك الإرادة، وهذه الإرادة العامة التى تنحو دائماً إلى صيانة ورفاهية الدولة كلها وكل جزء فيها ، هى مصدر القوانين ، وهى التى تشكل لجميع أعضاء الدولة ، فى علاقاتهم بعضهم ببعض القاعدة التى تفرق بين العدل والظلم [١٣٨] .

وحول هذا المفهوم يقيم روسو الأخلاق والسياسة التى ستغلب مذهب الآن على آرائه فى الشئون العامة . فنرى الثائر الذى اعتبر الفضيلة تعبير الإنسان الحر الطبيعى يعرفها الآن بأنها « ليست سوى مطابقة الإرادات الفردية للإرادة العامة »[١٣٩] . ونرى الرجل الذى كان ينظر إلى القانون مؤخراً جداً على أنه إثم من آثام الحضارة ، وأنه أداة مريحة لفرض النظام الطيع على الجماهير المستغلة ، يصرح الآن بأن القانون وحده هو الذى يدين له الناس بالعدل والحرية ، وهذا الجهاز النافع من أجهزة الإرادة الجماعية هو الذى يرسى ،

فى الحق المدنى ، المساواة الطبيعية بين البشر ، أنه الصوت السماوى الذى يملى على كل مواطن مبادىء العقل العام »[١٤٠] .

ولعل محررى الموسوعة المطاردين كانوا قد نبهوا روسو إلى التخفيف فى هذا المقال من هجومه على الحضارة . وسنجده بعد سبع سنوات ، فى كتابه « العقد الاجتماعى » يدافع عن الجماعة ضد الفرد ، ويقيم فلسفته السياسة على فكرة الإرادة العامة المقدسة السامية . على أنه لم يزل خلال ذلك فرديآ وثائراً يبغض باريس ، ويؤكد ذاته ضد أصدقائه ، ويصنع كل يوم أعداء جدداً .

٩ — الهروب من باريس ١٧٥٦

كان أصدقاؤه الحميمون الآن هم جريم ، وديدرو ، ومدام دينيه . أما جريم فقد ولد فى راتزبون عام ١٧٢٣ ، فكان بذلك يصغر روسو بأحد عشر عاماً . وقد تعلم فى ليبزج فى العقد الأخير من حياة باخ ، وتلقى عن يوهان أوجست إرنشتى أساساً مكيناً فى لغتى اليونان والرومان وآدابهما . فلما وفد على باريس فى ١٧٤٩ تعلم الفرنسية بما عرف عن الألمان من اتقان ودقة ، وما لبث أن وافى مجلة المركيز بمقالاته . وفى ١٧٥٠ أصبح السكرتير الخاص للكونت فون فريزن . وأغراه حبه للموسيقى بالتعلق بروسو ، كما رماه جوع أكثر عمقاً تحت قدمى الآنسة فل المغنية بالأوبرا ، فلما آثرت عليه المسيو كاهوزاك ، يقول روسو أن جريم :

« حز هذا فى نفسه حتى أصبحت أمارات خطبه مأساوية — فكان ينفق الأيام والليالى فى تراخ وتبلد . ويرقد وعيناه مفتوحتان . . لا يتكلم ، ولا يأكل ، ولا يتحرك . . وكنت والا بيه رينال نرعاه ، فالابيه — وكان أشد منى وأصح — يسهر عليه ليلا ، وأنا أرعاه نهاراً ، فلا نغيب عنه معاً فى وقت واحد »[١٤١] .

واستدعى فون فريزن طبيباً يعوده ، فأبى أن يصف له دواء غير الزمن . وأخيراً ذات صباح ، قام جريم ، وارتدى ثيابه ، واستأنف نظام حياته العادى ، دون أن يذكر يومها أو بعدها . . هذا التبلد الشاذ[١٤٢] .

وقدم روسو جريم إلى ديدرو ، وراح ثلاثتهم يحلمون بالذهاب معاً إلى إيطالياً . واستوعب جريم فى نهم سيل الأفكار المتدفق من معين عقل ديدرو وتعلم لغة « الفلاسفة » الخالية من التوقير ؛ وألف كتابا لا أدرياً « فى التعليم الدينى للأطفال » وأشار على فون فريزن بأن يتخذ ثلاث خليلات فى وقت واحد « تذكاراً للثالوث الأقدس » (١٤٣) وأقلقت روسو تلك الألفة النامية بين جريم ، الذى سيصفه سانت بوف بأنه « أكثر الألمان فرنسية » ، وبين ديدرو « أكثر الفرنسيين ألمانية » (١٤٤) وقال روسو شاكياً « إنك تهملنى ياجريم ، وأنا أغفر لك هذا » وأخذه جريم عند كلمته . فقال لى إننى مصيب . . . ثم حطم كل قيـــد ، فلم أعد أراه إلا فى صحبة أصدقائنا المشتركين (١٤٥).

وفى سنة ١٧٤٧ كان الابيه رينال قد بدأ يرسل للمكتتبين الفرنسيين والأجانب خطاب أتباء نصف شهرى سماه « الأنباء الأدبية » يورد فيه الوقائع فى دنيا الأدب والعلوم والفلسفة والفنون الفرنسية — وفى ١٧٥٣ عهد بالمشروع إلى جريم الذى — واصله بمعونة من ديدرو وآخرين حتى ١٧٩٠ . وأثناء اضطلاع جريم بالمجلة كان من بين من وافوها بمقالاتهم إفراد بارزون . كملكة السويد لويزا أوريلكا وملك بولندة السابق ستانسلاس لسكيزنسكى ، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأميرة ساكس — جوتا ، وأمير وأميرة هيسى — دارمشتات ، ودوقة ساكس — كوبورج ودوق تسكانيا الكبير ، والدوق كارل أوجست أمير ساكس — فيمار . أما فردريك الأكبر فقد احجم حينا عن المشاركة فيها لكثرة عدد من يبادلهم الرسائل فى فرنسا وأخيراً وافق على أن يتسلم المجلة ، ولكنه لم يدفع لها مالا قط . وقد أذاع جريم العدد الأول من المجلة عقب إضطلاعه بأصدارها (مايو ١٧٥٣) :

فى الصفحات المطلوبة منا لن نضيع وقتا على النشرات التى تغرق باريس كل يوم . . . . بل سنحاول أن نعطى تقريراً دقيقا ، وتحليلا منطقيا (critique raisonnée) للكتب التى تستحق أن يهتم بها الجمهور ؛

وستكون الدراما جزءا هاماً من تقريرنا لأنها فرع رائع من فروع الأدب الفرنسى وعلى العموم لن نغفل شيئاً جديراً بفضول غيرنا من الشعوب(١٤٦).

وهذه الرسائل الأدبية المشهورة هى الآن سجل رئيسى نفيس لتاريخ فرنسا الفكرى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وقد استطاع جريم أن يكون صريحاً فى مقالاته النقدية ، لأنها لم تكن معروفة للجمهور الفرنسى أو للمؤلف الذى تتناوله . وكان يتوخى الإنصاف عادة ، إلا مع روسو فى فترة لاحقة . وقد أصدر الكثير من الأحكام الصائبة ، ولكنه أساء الحكم على « كانديد » فزعم أنها لا تثبت — للنقد الجاد ، على أن هـذا الرأى لم يدفق إليه تحامل على فولتير ، فقد وصفه بأنه : « أعظم الرجال فى أوربا جاذبية وأكثرهم لطفا ، وأبعدهم صيتاً (١٤٧) . »

ورد فولتير التحية بطريقته الشيطانية فقال : « وما الذى يتراوى لهذا الوهيمى أن يزننا ذكاء وفطنة ؟ » (١٤٨) ورسائل جريم هذه هى التى أذاعت فى أرجاء أوربا أفكار التنوير الفرنسى أكثر من أى كتابات أخرى باستثناء مؤلفات فولتير . ومع ذلك خامرته الشكوك فى جماعة الفلاسفة وفى ايمانهم بالتقدم ، فقال : « إنما العالم مركب من : شرور لا يحاول إصلاحها غير إنسان معتوه » (١٤٩) وفى ١٧٥٧ كتب يقول :

« يبدو أن القرن الثامن عشر فاق كل القرون فى المدائح التى كالها لنفسه . . . . ولو تمادى فى هذا قليلا لأقنع خيرة المفكرين أنفسهم بأن دولة الفلسفة ، الهادئة المسالمة ، أوشكت أن تسود بعد عواصف الجنون الطويلة ، وأن ترسى إلى الأبد سلام البشر وهدؤهم وسعادتهم . . . ولكن الفيلسوف الصادق ، لسوء الحظ ، لديه أفكار أقل تعزية ولكنها أصح وأدق . . . . وهيهات أن أصدق أننا مقتربون من عصر العقل ، وأكاد اعتقد أن أوربا تتهددها ثورة مدمرة » (١٥٠) .

ونلمح هنا أثراً من الكبرياء والغرور اللذين كانا يغيظان إصدقاء جريم أحيانا . فلقد كان هذا المتفرنس أكثر من الفرنسيين ، ينفق الساعات فى

التزين ، وذر المساحيق على وجه وشعره ، والأسراف فى التعطر إسرافا لقب من أجله بدب المسك[١٥١] . وهو يبدو فى رسائله ينثر التحيات بمنة ويسرة بيد تتوقع الرد عليها . وقد اشترط فردريك للأشتراك فى الرسائل أن « يعفينى جريم من تحياته[١٥٢] . ومثل هذا التملق كان بالطبع جزءا من أسلوب الرسائل فى ظل « النظام القديم » .

واسترعى جريم أنتباه باريس ، وهو الوجل البارد المتزن عادة ، باشرافه على الموت هياما بالآنسة فل ، وبدخوله فى مبارزة من أجل مدام ديبينيه . وكانت هذه الأخيرة — لويز — فلورانس تارديوديسكلافيل — أبنه بارون من ڤالنسين مات فى خدمة الملك عام ١٧٣٧ . وبعد ثمانية أعوام حين بلغت لويز العشرين ، تزوجت من دنيس — جوزف لاليف ديبنيه وكان ابن جاب غنى . وذهبا للعيش فى قصر ريفى جميل يدعى الشاتو دلاشيفريت ، على تسعة أميال من باريس ، بقرب غابة مونمورنسى . وفاضت حياتها سعادة ، فتساءلت « أيستطيع قلبى أن يحتمل هذه السعادة؟ وكتبت إلى أبنة عم لها تقول » كان يعزف على البيان القيثارى ، وأنا جالسة على مسند كرسيه ويسراى على كتفه ، وعمناى تقلب الأوراق ، فلم يفته قط أن يقبلها فى كل مرة تمر أمام شفتيه[١٥٣] .

ولم تكن جميلة ، بل صغيرة الجسم أنيقة على نحو ساحر ، بديعة التكوين trés bien faite (كما تنبئنا)[١٥٤] ؛ وستفتن عيناها السودا وان النجلاوان فولتير بعد حين . ولكن « الأحساس دائماً بنفس الشىء يصبح بعد قليل « تماماً كالأحساس بلا شىء »[١٥٥] ، فلم يمض غير عام حتى كف ديبنيه عن ملاحظة هاتين العينين . لقد كان قبل الزواج فاسقا عربيدا فعاد الآن كما كان ، يسرف فى الشراب ، ويسرف فى القمار ، وينفق المال الطائل على الأختين فرييز ، اللتين أسكنهما كوخا على مقربة من لاشيفريت وولدت له زوجته خلال ذلك طفلين . وفى ١٧٤٨ عاد من رحلة فى الإقاليم ، وضاجع امرأته ، فنقل إليها عدوى الزهرى . وحصلت على انفصال شرعى عن زوجها بعد أن أعتلت صحتها وتحطمت

روحها . ووافق على تسوية سخية ؛ وورثت هى ثروة عمها ، فاحتفظت بلاشيفريت ؛ وحاولت أن تنسى تعاستها فى الحدب على طفليها ورعاية صديقاتها . فلما أصيبت احداهن — وهى مدام دجوللى — بالجدرى إصابة مميتة ذهبت لويز لتمرضها ، ومكثت معها إلى النهاية ، معرضة نفسها لعدوى قد تودى بها أو تشوهها مدى الحياة .

وأجمعت صديقاتها على أنه يحسن بها أن تتخذ عشيقا . وجاء عشيق (١٧٤٦) وهو دوبان دفرانكوى ، الرجل الذى وظف روسو عنده . وقد بدأ بالموسيقى ، وإنتهى بالزهرى ، ولم يلبث أن شفى من هذا الداء فى حين ظلت هى تعانى منه[١٥٦] . وإنضم إلى زوجها فى إقتسام الآنستين دفرييز . وقال لهـــا دوكلو فى صراحة جافية « أن فرانكوى وزوجك يقتسمان الأختين فيما بينهما[١٥٧] » . فأصيبت بحمى وهذيان داما ثلاثين ساعة . وحاول دوكلو الحلول محل دوبان ، ولكنها طردته . ثم كانت مأساة أخرى حين أعطتها مدام دجوللى وهى على فراش الموت حزمة أوراق تفضح غرامياتها وألحت عليها فى أن تحرقها ، ففعلت . واتهمها المسيو دجوللى بأنها أحرقت عن عمد شهادات مديونيتها هى له . وأنكرت التهمة ولكن القرائن كانت ضدها ، إذ كان معروفا أنها كانت تعين زوجها بالمال رغم انفصالها عنه .

فى هذه الأزمة دخل جريم الدراما ، وكان روسو قد قدمه إلى لويز فى ١٧٥١ ، وكثيراً ما إشترك ثلاثتهم فى عزف الموسيقى أو الغناء معا . وذات مساء فى حفلة أقامها الكونت فون فريزن أعرب أحد الضيوف عن اعتقاده بأن مدام ديبنيه مذنبة . . ودافع عنها جريم ؛ واحتد النقاش إلى حد المساس بالشرف ، وتبارز صاحب الأتهام والمدافع ، فجرح جريم جرحا طفيفا . وبعد حين وجدت الوثائق المفقودة ؛ وبرئت ساحة السيدة ، فشكرت جريم باعتباره « فارسها الهمام » ونما تقدير الواحد منهما لصاحبه فاكتمل حباً من أبقى وأثبت ما شهده ذلك العصر القلب : وحين أتلف الحزن صحة البارون دولباخ لموت زوجته ، وسافر جريم

العناية به فى الريف ، سألته لويز « ولكن من سيكون فارسى ياسيدى إن هاجمنى أحد فى غيابك » ؟ فأجاب جريم « هو ما كان من قبل — حياتك الماضية[١٥٨] » . ولم يكن الجواب قاطعاً مانعا ، ولكنه فاق حدود الثناء .

وكان روسو قد التقى بمدام ديبنيه فى ١٧٤٨ فى بيت مدام دوبان . ودعته إلى لاشيفريت . وفى « مذكراتها » وصف له :

« أنه يقدم التحيات والمجاملات ، ولكنه ليس مؤدبا ، أو على الأقل يعوزه مظهر التأدب . والظاهر أنه جاهل بعادات المجتمع ، ولكن من الواضح أنه مفرط الذكاء . وله بشرة سمراء ، وعينان بيضاوان تتوهجان وتضفيان الحيوية على قسماته . . . . . ويقال إنه عليل ، ويتجلد لعذاب يحرص على كتمانه . . . . وهذا فى ظنى هو الذى يضفى عليه أحياناً .... ، مظهر الاكتئاب[١٥٩] » .

أما الصورة التى رسمها لها فلم تكن شديدة التأنق :

« لم يكن حديثها الخاص ممتعاً ، وأن لم يعوزه اللطف فى حضرة الجنسين . . . وأسعدنى أن أبدى لها بعض المجاملات ، وقبلتها قبلات أخوية صغيرة ، لم تبد أكثر شهوانية منها هى . . . . لقد كانت غاية فى النحول ، والشحوب ، ولها صدر كظاهر يدها . وكان هذا العيب وحده كافيا للتخفيف من أحر رغباتى[١٦٠] » .

وظل سبع سنوات يلقى الترحيب فى بيت مدام ديبنيه . فلما رأت مبلغ ضيقه فى باريس فكرت فى سبل تقديم المعونة له ، ولكنها كانت تعلم أنه سيرفض المال . وبينما كانا ذات يوم يسيران فى حديقتها خلف لاشيفريت ، أرته كوخا يسمى « الارميتاج (الصومعة) » كان من قبل ملكاً لزوجها . وكان مهجوراً متهدماً ، ولكن موقعه على حافة غابة مونمورنسى حمل روسو على أن يقول فى انفعال : « يا له من مسكن مبهج يا سيدتى ! كأن هذا الملجأ أعد لى خصيصاً »[١٦١] . ولم تجب السيدة ، ولكن حين عاودا السير إلى الكوخ فى سبتمبر ١٧٥٥ ، أدهش روسو أن يجده قد رمم ، وأثثت

حجراته الست ، ونظفت الأرض المحيطة به ورتبت : وينقل عنها أنها قالت « يا عزيزى ، إليك ملجأك ، فأنت الذى اخترته ، أن الصداقة تقدمه لك . وأرجو أن يزيل هذا فكرتك القاسية ، فكرة الانفصال عنى » وكانت تعلم أنه فكر من قبل فى أن يقيم فى سويسرة ، ولعلها لم تعرف ما طرأ من فتور على تحمسه لجنيف . و « فاضت دموعى على اليد الكريمة » يد صديقته ، ولكنه تردد فى قبول عرضها . فأغرت تريز ومدام لفاسير بقبول خطتها ، و « أخيراً تغلبت على جميع قراراتى » .

وفى أحد القيامة ، ١٧٥٦ ، ولكى تجمل الهدية باللياقة ، جاءت باريس فى مركبتها ، وأخذت « دبها » كما كانت تدعوه ، هو وخليلته وحماته ، إلى الارميتاج . ولم يلذ تريز فراقها لباريس ، أما روسو ، فما إن استنشق هواء الخلاء حتى شعر بأنه أسعد منه فى أى وقت منذ أيام فردوسه الريفى مع مدام دفاران . « فى ٩ إبريل ١٧٥٦ بدأت أحيا » [١٦٢] ، ولكن جريم أفسد الفرحة بتحذير لمدام دينيه :

« إنك تضرين روسو ضررا بليغاً بإعطائه الارميتاج ، ولكنك تضرين نفسك ضرراً أبلغ . فستكمل العزلة مهمة تسويد خياله ، وسيبدو كل أصدقائه فى عينيه ظلمة جاحدين ، وأنت أولهم ، إن رفضت ولو مرة واحدة أن تمتثلى لأوامره » [١٦٣] .

وانطلق بعد ذلك جريم ، الذى أصبح الآن سكرتيراً للمرشال دستريه ، ليلعب دوره فى الحرب التى سترسم خريطة العالم من جديد .

* * *